تلخيص الحضارة الإسلامية

موجز الأسلوب الذي اتبعه الحكام

ج٢

اختيار

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

(قدس سره الشريف)

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر
بيروت . لبنان ص.ب: ٦٠٨٠ شوران

بسم الله الرحمن الرحيم

فسيروا
في الأرض
فانظروا كيف كان
عاقبة المكذبين

صدق الله العلي العظيم

سورة آل عمران: ١٣٧، وسورة النحل: ٣٦

الجغرافيا

تقويم البلدان

في القرن الرابع الهجري نجد التقدم في البحث الجغرافي تقدماً واضحاً كل الوضوح، ولا أريد أن أتناول بالبحث من هذه الناحية إلا ما صنف من الكتب، وذلك في شيء من الإيجاز.

كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري.

وأول ما كان من ذلك كتب الكندي، حوالي (عام ٢٠٠هـ =٨٠٠م).

ثم ظهر بعد ذلك، حوالي (٢٣٢هـ = ٨٤٦م)، كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة.

يقول المسعودي حوالي عام (٣٣٢هـ =٩٤٣م)، إن كتاب ابن خرداذبة، على الرغم من عيوب فيه، هو أحسن كتاب في موضوعه.

وأما الهمداني (المتوفى عام ٣٣٤هـ= ٩٤٥م) فهو يصف جزيرة العرب وصف عالم اللغة.

وكذلك وصف قدامة بن جعفر (المتوفى عام ٣١٠هـ =٩٢٢م) مملكة الإسلام، وما جاورها من الممالك، في كتابه الصغير المسمى (كتاب الخراج وصنعة الكتاب).

وكان اليعقوبي (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) أول جغرافي بين المسلمين وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة، ومتوخياً قصد ما أراد من وصف البلاد وخصائصها، وهو يقول عن نفسه: إنه عني في عنفوان شبابه وحدة ذهنه بعلم أخبار البلدان، ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنه سافر حديث السن، واتصلت أسفاره، ودام تغربه، وقد طاف بلاد المملكة الإسلامية كلها، فنزل أرمينية، وورد خراسان، وأقام بمصر والمغرب، بل سافر إلى الهند، وكان متى لقي رجلاً سأله عن وطنه ومصره، وعن زرعه ما هو؟ وساكنيه من هم؟ عرب أو عجم؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم، من غير أن

يلحقه من ذلك ملال ولا فتور.

وهو يقول: (ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس في الموسم وغير الموسم، من أهل المشرق والمغرب، وكتبت أخبارهم، ورويت أحاديثهم... فلم أزل أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته).

وقد وصف المملكة الإسلامية، مبتدئاً ببغداد، وصفاً منظماً مع إصابة جديرة بالثقة والإعجاب، ولكنه لم يخطر له، مع الأسف، أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة، يصف فيه تجاربه الخاصة، وأحوال الناس، وما لقيه في أسفاره، ولم يكن جغرافيو ذلك العهد قد بلغوا هذه الدرجة من اعتقاد الطرافة في أنفسهم، فلم يقيموا لأنفسهم وزناً في هذه الناحية.

على أن المسعودي (الذي ألف حوالي عام ٣٣٢هـ =٩٤٤م) لم يفعل من ذلك أكثر مما فعله اليعقوبي، مع أن حبه للاستطلاع حمله إلى بلاد بعيدة في إفريقية وفي الصين، ولكنه تكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره، وهذا ما تجنبه اليعقوبي وتحاشاه تحاشياً تاماً.

ثم جاءت كتب (المقدسي) و(ابن حوقل) في القرن الرابع الهجري، فكانت هي الذروة التي بلغها المسلمون في وصف البلدان، وكلاهما قد سافر حتى دوخ الممالك، وحمله تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياحة على طريقة المسلمين.

فأما المقدسي فيقول عن نفسه: إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً [1]، غير الكدية وركوب الكبيرة، وإنه أنفق في أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم.

---

[1] – وهو يقول (ص٨) انه لم يظهر كتابه حتى بلغ الأربعين. أما تجاربه فهو يقول (ص٤٤): «فقد تفقّهت وتأدّبت وتزهّدت وتعبّدت... وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممّت في المساجد، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد... وسحت في البراري وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زماناً، وأكلت الحرام عياناً... وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل، وأشرفت مراراً على الغرق، وقُطع على قوافلنا الطرق... وسجنت في الحبوس، وأخذت على اني جاسوس، ومشيت في السمائم والثلوج، ونزلت عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لي بالصلات، وعريت وافتقرت مرات...»، وكان بداخل كل طائفة لابساً ثوبها ليعرف حقيقة أمرها، حتى دعي بأسماء تزيد على الثلاثين لاختلاف البلدان والأحوال.

وأما ابن حوقل: فيقول إنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه إلا الصحراء الغربية الكبرى، فيعرف بأنه لم يشاهد جميعها.

ثم إن المقدسي أضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخططها، ولكن هذه الخريطة لم تصل إلينا، وهو يقول: إنه بين فيها الطرق المعروفة بالحمرة، والرمال الذهبية بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة: ويذكر أنه رأى مثل هذا التصوير في كتاب البلخي (المتوفى عام ٣٢٢هـ=٩٣٤)، وفي خزانة أمير خراسان، وفي نيسابور عند أبي القاسم الأنماطي، وفي خزانة عضد الدولة والصاحب، هذا إلى دفاتر رآها مع البحريين.

وحوالي منتصف القرن الثالث الهجري أرسل (الخليفة الواثق) بعثة برية إلى سد يأجوج ومأجوج.

وقد وصف (ابن فضلان) رحلته التي قام بها حوالي (عام ٣٠٩هـ=٩٢١م) إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر أتل (الفلجا).

وكذلك حكى (أبو دلف) خبر رحلته إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية حوالي (عام ٣٣٣هـ=٩٤٤م).

وحوالي هذا الوقت عرف (الأصطخري) من رجل كان يخطب بمدينة بلغار أن الليل عندهم يقصر في الصيف بحيث لا يتهيأ للإنسان أن يسير فيه أكثر من فرسخ، وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل، حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف.

وكذلك خرج من مدينة لشبونه جماعة كلهم رجال أبناء عم، فأنشأوا مركباً، وتزودوا فيه، ثم ركبوا بحر الظلمات، واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه، وهم يسمون المغررين (أو المغربين).

وكان التجار يزودون أهل بلادهم بأخبار بلاد الألمان وبلاد الفرنسيين.

وفي سنة (٣٧٥هـ=٩٨٥م) كتب (المهلبي) للخليفة الفاطمي (العزيز بالله) كتاباً في الطرق والمسالك، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً، وكان علماء الجغرافية في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلاً جداً.

وكذلك ألف (محمد التأريخي) توفي (عام ٣٦٣هـ = ٩٧٣م)، وهو عالم جغرافي أندلسي،

كتاباً في وصف إفريقية والمغرب.

وكذلك وضع المعلم (خواشير بن يوسف بن صلاح الأركي) الذي سافر حوالي (عام ٤٠٠هـ =١٠٠٩م)، في مركب دبوكره الهندي، وطاف بسواحل إفريقية الجنوبية، ووضع أصول المصورات البحرية (وكانت تسمى الرهمانيات) التي عملت في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي.

وحوالي ذلك الوقت[٢] بدأت الحروب تشن من غزنة على الهند، فأتاح ذلك مناسبة للأستاذ أبي الريحان البيروني كي يكتب أول كتاب، والكتاب الوحيد الخاص، بالهند (وهو الذي سماه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة).

تعليق

يزيد المرحوم (الأستاذ خدا بخش) مترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية، أن أحمد بن سهل البلخي من قرية الشامستيان بجوار بلخ، وكتابه يسمى «صور الأقاليم»، وهو أكبر مصدر رجع إليه الإصطخري.

أما أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، فيقول صاحب الفهرست (ص ١٥٤) إنه أخذ كتابه من عدة كتب، وخصوصاً كتاب الجيهاني، ولكن يتبين من كتاب الهمذاني أنه ألف قبل (عام ١٩٠هـ) أي قبل أن يؤلف الجيهاني كتابه بعدة سنين.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني من جيهان، بلدة بخراسان، على شاطيء نهر جيحون.

---

[٢] – يعني سنة ٤٠٠هـ.

دعوى النبوة

وفي القرن الرابع تجد بين حين وآخر من يظهر بدعوى النبوة في إقليم من الأقاليم.

ففي عام (٣٢٢هـ=٩٣٤م)، ظهر بباسند من أعمال الصغانيان . وهي من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح . رجل ادعى النبوة، فقصده فوج بعد فوج، واتبعه خلق كثير، وحارب من خالفه... وكثر أتباعه من أهل الشاس، وكان صاحب حيل ومخاريق، فكان يدخل يده في حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنانير، إلى نحو ذلك. ولما كثر جمعه وخيف شره أنفذ إليه الحاكم جيشاً، فحاربوه وضيقوا عليه وقتلوه.

وتنبأ رجل بمدينة أصفهان حوالي (عام ٣٢٥هـ) ، فسئل عن آيته وحجته، فقال: من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة، فليحضرها إلي، أحبلها بابن في ساعة واحدة[٣]، فقال والي الخراج أبو الحسين بن سعد: أما أنا فأشهد أنك رسول الله، واعفني من ذلك! وقال له رجل: نساء ما عندنا، ولكن عندي عنز حسناء، فأحبلها إلي، فقام يمضي فقيل له: إلى أين؟ قال: أمضي إلى جبريل، وأعرفه أن هؤلاء يريدون تيساً ولا حاجة بهم إلى نبي، فضحكوا منه وأطلقوه.

على أن هذا القرن لم يخل من قوم تنكبوا عن الدعوى العريضة، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين، يبتغون شيئاً فوق العبودية له، متبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين.

وكان من العادات المحبوبة كثيراً عند كبار المتعبدين في ذلك العصر أن الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة. وقد آلى أبو العلاء المعري الشاعر (المتوفى عام ٤٤٩هـ=١٠٥٧م) على نفسه ألا يترك بيته أبداً، مع أنه لم يكن من رجال الدين المتعبدين.

وكان كثير من عباد ذلك العصر مأواهم المسجد.

---

[٣] – وحكي مثل هذا عن رجل تنبأ أيام المأمون، فتوجه إلى الخليفة وقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أن نبي الله بالباب، فأذن له؛ فقال له ثمامة: ما دليل نبوتك؟ قال تحضر لي أمك، فأواقعها، فتحمل من ساعتها، وتأتي بغلام مثلك؛ فقال ثمامة: صلى الله عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ذلك أهون علي من إحضارك أمي ومواقعتها.

ويحكى أن الخليفة القادر كان يقسم الطعام الذي يهيأ له ثلاثة أقسام، فيترك قسماً بين يديه، ويأمر بحمل القسمين الآخرين، ليفرقا على المجاورين في جامعين كبيرين ببغداد.

وفي سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) توفي أبو العباس عبد الله بن محمد البشتي الزاهد، وكان من الصالحين، وبقي سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدة.

ويحكي الحجويري أنه لقي بخراسان رجلاً من الصالحين، يسمى الأديب الكمندي، مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للتشهد في الصلاة، وسئل في ذلك فقال: ليست لي هذه الدرجة بعد، حتى أجلس، وأنا أشاهد الحق.

ويحكي عن آخر من أصحاب التهجد والعبادة أنه لم يعرف له فراش أربعين سنة.

وكذلك بنى آخر قبراً لنفسه بجنب بشر الحافي، وكان يمضي إلى ذلك الموضع، فيختم فيه القرآن، ويدعو، ومضى على ذلك عدة سنين.

ويحكى عن محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصبهاني المحدث الصالح (المتوفى عام ٣٣٩هـ=٩٥٠م) أنه كان مجاب الدعوة، ولم يرفع رأسه إلى السماء نيفاً وأربعين سنة.

وفي سنة (٣٣٦هـ=٩٤٧م) توفيت بمكة ابنة أحد الصالحين، وكانت ورعة عابدة، وكانت تقتات طول عامها من ثلاثين درهماً ينفذها لها أبوها.

وفي سنة (٣٤٨هـ=٩٥٩م) توفي أحد العلماء، وكان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل اللقم التي استفضلها.

وفي سنة (٤٠٤هـ=١٠١٣م) توفي ابن البغدادي الزاهد العابد، وكان يخرج إلى الناس، وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته، لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة، وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شيء من الأشياء موضوع، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه، فيؤثر في جبهته أثراً، وكان لا يدخل الحمام، ولا يحلق رأسه، لكن يقص شعره إذا طال بالجلم. وكان يغسل ثيابه بالماء حسب من غير صابون، وكان يأكل خبز الشعير، فقيل له في ذلك، فقال: الشعير والحنطة عندي سواء.

وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق (المتوفى عام ٣٤٢هـ =٩٣٥م) يدعو بين الأذان والإقامة، ثم يبكي، وربما ضرب برأسه الحائط حتى تكاد تدمي رأسه، ويحكي عن أبي بكر

أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري (المتوفى عام ٤٥٨هـ =١٠٦٦م) أنه كان يصوم الدهر قبل أن يموت بثلاثين سنة.

وذكر في عداد العباد أيضاً من أشد المدققين في مراعاةِ أحكام الشريعة، فيحكى عن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني (المتوفى عام ٤٣٨هـ=١٠٤٦) . وهو والد إمام الحرمين . أنه كان ورعاً زاهداً متحرياً في العبادات، ومن ورعه أنه ما كان يستند في داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه، ولا يدق فيه وتداً، وأنه كان يحتاط في أداء الزكاة، حتى كان يؤدي الزكاة في سنة واحدة مرتين حذراً من نسيان النية، أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق.

وتوفي في عام (٤٩٤هـ=١١٠١م) أحد الزهاد بمرو، وكان لا يأكل الأرز لأنه يحتاج . إذا زرع . إلى ماء كثير، وصاحبه قل ألا يظلم غيره في سقي الماء.

ويحكى عن والد إمام الحرمين الجويني أنه كان حريصاً على ألا يطعمه ما فيه شبهة، وقد بكى مرة وأمه مشتغلة بطعام، وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران، فأرضعته مصة أو مصتين، فأنكر أبوه ذلك، وقال: هذه الجارية ليست لنا، وليس لها أن تتصرف في لبنها، وأصحابها لم يأذنوا بذلك، وقلب ابنه وفوعه، حتى لم يدع في باطنه شيئاً إلا أخرجه.

وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفة أراد حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيداً وهو الحاكم بأمر الله، ففي حوالي عام (٤٠٠هـ=١٠٠٩م) اقتصر في مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتماسك الجسم دون الزيادة والمغالاة في ذلك، وأغلق مطبخ دار الخلافة، واكتفى بأكل ما ترسله له أمه، ومنع الناس من تقبيل التراب بين يديه، ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له، ومن مخاطبته بمولانا، وربى شعره، وترك ركوب الخيل، وصار يركب الحمير بسرج ولجام حديدي، مختلطاً بالناس بلا مظلة وبلا طراد بين يديه، وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة، وأعاد للناس كل ما كان أخذ من أملاكهم وعقارهم في عهده أو عهد جده بمصادرة أو بغير حق. وفي المحرم من عام (٤٠٠هـ) أعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور، وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى، وملكهم أمر نفوسهم. وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأمهات أولاده.

ويروى عن أبي محمد إسماعيل بن محمد الدهان الذي برع في العلم والأدب وعلوم اللسان

وأخذ عن الجوهري، واختص بالأمير أبي الفضل الميكالي، ومدحه وأباه بشعر كثير، أنه آثر الإعراض عن الدنيا، وأحب الزهد، وأزمع الحج والزيارة، وقال أشعاراً في ذلك، وقد سأل الثعالبي ألا يورد في كتابه شيئاً من شعره في الغزل والمدح، فعمل بما سأله.

ويحكى من خبر أبي جعفر البحاث محمد بن الحسين بن سليمان، من إحدى كور نيسابور، وكان له محل من الشعر والعلم والأدب، وتصرف بالقضاء في بلاد خراسان، أنه قال قصيدة في الشباب والمشيب، والحياة والموت، ومنها:

شباب كلامع برق رحل   وشيب كمثل غريم نزل

....

مضت وانقضت غفلات الشبا   ب وجاء المشيب، وبئس البدل

كأني رأيت الصبا في المنا   م خيالاً تمثل ثم اضمحل

ثم يذكر حال الميت مع أهله فيقول:

فهذا يجاذب ما قد حوا   ه وهذا يخالسه ما فضل

إذا وضعوه على نعشه   أشاعوا البكا، وأسروا الجذل

وإن دفنوه نسوه معا   وكل بميراثه مشتغل

ويختم قصيدته بالتوجع لما مضى مسلماً مرات كثيرة على عادة شعراء هذا الطراز:

أقول وللدمع في مقلتي   سوابق قطر له مستهل:

سلام على طيب عيش مضى   وأنس بإخوان صدق نبل

سلام على من قوني للقيا   م إلى الفرض في وقته والنفل

سلام على الختم في ليلة   بقلب كئيب حليف الوجل

سلام على الكتب ألفتها   ووشحتها بصحاح العلل

سلام على مدح صغتها   وحبرتها في الليالي الطول

سلام امرئٍ ما اشتهى لم يجد   وما رام، مجتهداً، لم ينل

أناب إلى ربه تائباً   ومستغفراً للخطا والزلل

وكثيراً ما كان انقلاب الناس فجأة سببه سماعهم آيات من القرآن.

فيحكى عن جعفر بن حرب (المتوفى عام ٣٤٩هـ)، وكان يتقلد كبار الأعمال للسلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة، أنه اجتاز يوماً راكباً في مركب عظيم له، ونعمته على غاية الوفور والجلال، فسمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم**

لذكر الله وما نزل من الحق﴾ [٤]، فصاح: اللهم بلى! وكررها دفعات، وبكى، ثم نزل عن دابته، ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة، واستتر بالماء، ولم يخرج منه، حتى فرق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه، وردها وتصدق بالباقي، فاجتاز رجل، فرآه في الماء قائماً، وسمع بخبره، فوهب له قميصاً ومئزراً، فاستتر بهما وخرج، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات.

ويحكى عن نصر بن أحمد الساماني (المتوفى عام ٣١٠هـ=٩٤٢م) أنه في مرضه الطويل الذي مات فيه بنى لنفسه بيتاً أمام باب القصر، وسماه «بيت العبادة»، وكان فيه يصلي ويدعو ويتضرع، وهو في لباس التوبة.

ويحكى أيضاً عن السلطان معز الدولة (المتوفى عام ٣٥٦هـ=٩٦٦م) أنه لما اشتدت به العلة وأحس بالموت، أظهر التوبة، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء، وسألهم عن حقيقة التوبة، وهل تصح له؟ فأفتوه بصحتها، ولقنوه ما يجب أن يقول ويفعل، فتصدق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه، ورد شيئاً كثيراً من المظالم، وبكى حتى غشي عليه.

[٤] – سورة الحديد: ١٦.

الحج

وكان الحج في تلك العصور، بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً، أو معرضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى. فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحج وإيقاعهم حتى بقافلة السلطان صار الحاج يدفعون مكساً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين.

وكان الحاج في أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب قلة الماء في الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب.

وكثيراً ما نقرأ في تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة، وهي أن يقال: «ومات في طريق الحج».

وفي عام (٢٩٥هـ=٩٠٧م) أصاب الحجاج في منصرفهم ببعض الطريق عطش، حتى مات منهم جماعة، قال الطبري: سمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفه ثم يشرب.

وفي سنة (٤٠٢هـ=١٠١١م) هاجت ريح سوداء على الحجاج، وهم في بعض الطريق، ففقدوا الماء، وهلك منهم خلق كثير، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم.

وفي عام (٤٠٣هـ=١٠١٢م) سبق بعض الأعراب الحجاج إلى مواضع الماء، فنزحوها، وغوروها، وطرحوا الحنظل في الآبار، وترصدوا الحجاج، ومنعوهم من الاجتياز، وطالبوهم بمال كثير، وبلغ منهم العطش مبلغاً كبيراً، وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً، ولم يفلت إلا عدد يسير، وكوتب عامل الكوفة . وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج . بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل، ويوقع بهم بما يشفي الصدر منهم، فلحق بهم في البرية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم، وأسر خمسة عشر من وجوههم، وأرسلهم إلى بغداد، فشهروا هناك، وأودعوا الحبس، وأجيع منهم جماعة وأطعموا المالح، وتركوا على دجلة، حتى شاهدوا الماء حسرة، وماتوا عطشاً.

وتم الظفر بعد سنتين ببني خفاجة الذين كانوا أضر الناس بالحجاج في ذلك العهد،

فأفلت من في أسرهم من الحجاج، وكانوا قد جعلوهم رعاة لأغنامهم، فعادوا وقد قسمت تركاتهم وتزوجت نساؤهم.

وفي سنة (٤٠٥هـ=١٠١٤م) هلك من الحاج كثيرون، وكانوا عشرين ألفاً فسلم ستة آلاف وقد اشتد الأمر بهم، حتى شربوا أبوال الجمال، وأكلوا لحومها.

وكانت سيول الأنهار الصغيرة التي تنشأ عن المطر في الصحراء تصيب الحجاج أيضاً ببعض الأذى، ففي سنة (٣٤٩هـ=٩٦٠م) انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجهم، فنزلوا في واد بمكة، فلما كان بالليل حملهم الوادي، وهم لا يشعرون، فغرق أهل مصر، وكانوا عدداً كبيراً، وكنسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر.

وكان المفرطون في الصلاح والعبادة يحجون سيراً على أقدامهم، ويحكى عن أحد العباد أنه كان في طريق الحج يصلي عند كل ميل ركعتين.

وكان من عادة الصوفية أن يخرجوا في هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولا مال.

وكانت عودة الحجاج عيداً كبيراً، فكان الحجاج يبيتون بالياسرية، إحدى ضواحي بغداد، ثم يبكرون لدخول بغداد.

وكان الخليفة يستقبل الحجاج العائدين الذين يمرون ببغداد في طريقهم إلى المشرق، ففي عام (٣٩١هـ=١٠٠٠م) جلس الخليفة القادر بالله إلى أهل خراسان العائدين من الحج، وقريء في هذا الحفل العظيم على رءوس الملأ تقليد ولي العهد.

وكانت ثم أماكن مقدسة في كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيباً من مجموع الحجاج الذين يقصدون مكة.

ونجد مدينة (بيت المقدس) بوجه خاص قد استفادت في هذه الظروف الجديدة مما كان منذ عهد طويل من مزايا تجذب الناس إليها. ويحدثنا ناصر خسرو، في القرن الخامس الهجري، أنه في وقت الحج كان الناس، الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من سكان الشام وأطرافها، يقصدون بيت المقدس في موسم الحج، ويضحون ضحية العيد كما هي العادة، وكان يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان في بعض السنين، وكانوا يحملون أبناءهم ويؤدون السنة.

ويحكى لنا أيضاً إنشاء نماذج للأماكن المقدسة، على نحو يشبه تمثيل جبل الجلجلة

عندنا، فقد روي عن الخليفة المتوكل في القرن الثالث الهجري أنه بنى بمدينة سامراء كعبةً، وجعل هناك طوافاً، واتخذ منى وعرفات ليغر بذلك أمراء كانوا معه، لما طلبوا الحج، خشية أن يفارقوه.

وكان في ذلك العصر بين بعض الصوفية معارضة قوية للحج بالجملة.

ويحكى عن أحد الصوفية الأولين أنه أمر أحد الحجاج بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمه.

ويؤثر عن صوفي توفي عام (٣١٩هـ=٩٣١م) أنه قال: (عجبت لمن يقطع البوادي والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه، لأن فيه آثار أنبيائه، كيف لا يقطع نفسه وهواه، حتى يصل إلى قلبه، لأن فيه آثار مولاه!).

ويذكر لأبي حيان التوحيدي، وكان صوفي السمت والهيئة، متفنناً في الكلام على مذهب المعتزلة، أنه ألف حوالي عام (٣٨٠هـ=٩٩٠م) (كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي).

ويحكى أن الوزير نظام الملك في القرن الخامس الهجري استأذن السلطان ملكشاه في الحج، فأذن له، فخرج، فلما عبر دجلة، وضرب خيامه، جاء فقير تلوح عليه سيما القوم (الصوفية) إلى الخيمة التي فيها الوزير، وأعطاه رقعة مطوية كان فيها: رأيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وقال لي: اذهب إلى الحسن، وقل له: أين تذهب إلى مكة؟ حجك ها هنا، أما قلت لك: أقم بين يدي هذا التركي، وأعن أصحاب الحوائج من أمتي؟ فرجع نظام الملك.

ويقول الحجويري نفسه في القرن الخامس الهجري وهو مثال الصوفية المتساهلين المعتدلين: (الحج نوعان: الأول في الغيبة، والثاني في الحضور، فمن كان غائباً عن الله في مكة فهو كمن كان غائباً عنه في بيته، ومن كان حاضراً مع الله في بيته فهو كمن كان حاضراً معه في مكة، فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة، ولكنها وسيلة لها ... فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقي مشاهدة الله)[٥].

ويخيل للإنسان أن طوائف المثقفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأناً أكبر، وذلك تمشياً

---

[٥] – لا يخفى ان اللازم على الإنسان ان يتمسك بالكتاب والعترة الطاهرة في جميع أمور حياته كما وصى بذلك رسول الله ﷺ ، أما الافراط والتفريط فغير صحيح.

مع التبجيل المتزايد للنبي (صلى الله عليه وآله).

ويحكى أن البخاري صنف كتابه في التاريخ عند قبر الرسول (صلى الله عليه وآله)، ويقول أبو محمد النيسابوري الذي أخذ عن الجوهري، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا، وذلك عند ما أزمع الحج والزيارة:

أتيتك راجلاً، ووددت أني ملكت سواد عيني أمتطيه
ومالي أسير على المآقي إلى قبر رسول الله فيه!

ويحكى عن جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١هـ) وهو الذي استجلب الدارقطني المحدث من بغداد، وبر إليه، وأنفق عليه نفقة واسعة، وكان وزيراً لكافور الأخشيدي، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من أقرب الدور إليه وأوصى أن يدفن فيها.

ويحكى عن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسن (المتوفى عام ٤٨٨هـ = ١٠٩٥م) أنه مات، وهو أحد خدام روضة المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وكان يكنس المسجد، ويفرش الحصر، ويشعل المصابيح.

الجهاد

وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد، واعتنوا به جادين على عادتهم دائماً، وقد أراد كثير من المؤمنين الصالحين أن يدخلوا الجنة من باب الجهاد في سبيل الله، فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل إلى مدينة طرسوس، وكانت قاعدة حربية وثغراً من ثغور مملكة الإسلام مما يلي حدود الروم، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلاً عن جيل، كما كانت ترد على تلك المدينة صلات أهل البر وأرباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم.

يقول ابن حوقل: (ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان... إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة، ويرابطون بها إذا وردوها، وتكثر لديهم الصلات، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة، إلى ما كان

السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا ولم عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق).

وكان أهل الثغور يكرمون في بغداد، ويحكى عن أبي علي القالي اللغوي المشهور (المتوفى عام ٣٥٦هـ=٩٦٧م) أنه سمي القالي، لأنه لما انحدر إلى بغداد كان في رفقة فيها أهل قالي قلا، وهي قرية من قرى منازجرد (بأرمينية)، وكانوا يكرمون لمكانهم من الثغر، فنسب إليهم لكونه معهم، وثبت على ذلك.

وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطوعة، وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة، فإذا كان شهر أبيب بعث القاضي ما اجتمع من أموال السبيل، ففرقت على مواحيز مصر من العريش إلى لوبية، وأعطيت للمطوعة ومن كان فقيراً من أهل الديوان.

وكانت بلاد ما وراء النهر ثانية ناحية تلي طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد، وذلك لما اشتهر به أهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس، ومن أنهم أكبر أهل الإسلام نصيباً في التضحية وأعظمهم حظاً في الجهاد، يقول الإصطخري: (لا تجد في بلدان الإسلام أهل الثروة إلا والغالب على أكثرهم صرف نفقاتهم إلى خاص أنفسهم في الملاهي وما لا يرضاه الله، وإلى المنافسات فيما بينهم في الأشياء المذمومة، إلا القليل منهم، وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم).

وكان في مدينة (بيكند) بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباط للغزاة المجاهدين، ويقال: إنه كان بمدينة اسبيجاب، وهي ثغر جليل ودار جهاد، ألف وسبعمائة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاماً لهم وعلفاً لدوابهم.

وكانت رغبة الخراسانيين في الجهاد وحميتهم له سبباً في سيرهم إلى الجبهة الغربية في مملكة الإسلام، وذلك عندما توالى نجاح الروم في مهاجمة بلاد الإسلام، ففي عام ٣٥٥هـ خرج من خراسان قوم يظهرون أنهم غزاة، وكان عددهم نحواً من العشرين ألفاً، وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بني بويه.

الخطابة

قيل لعبد الملك بن مروان: أسرع إليك الشيب، فقال: كيف لا، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس.

وقيل: نعم الشيء الإمارة، لولا قعقعة البريد وصعوبة المنبر.

وكان ارتقاء المنبر في كل أسبوع للخطبة في الناس واجباً شاقاً حتى على كبار الأمراء أيضاً، وكان فيه مزلة للأقدام بالنسبة للقواد، لأنه يخرج بهم عما اعتادوا من صناعة السيف دون صناعة اللسان والكتب.

وكان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام غيره.

وفيما يتعلق بهذه الناحية القليلة الشأن من نواحي الحياة الدينية نجد أنه في القرن الثالث الهجري قد انقطعت العادة الإسلامية التي جرى عليها الإسلام في عهده الأول، فترك الخلفاء والولاة الخطبة في الجمعة، وعهدوا بذلك إلى خطباء ندبوا لذلك واختصوا به.

وفي عام (٢٧٩هـ) صلى الخليفة المعتضد بالناس صلاة الأضحى، ولم يسمع منه خطبة. ولم يكن الخليفة يخطب إلا في الأعياد.

ويحكى عن الخليفة الراضي بالله (٣٣٤- ٣٦٣هـ=٩٤٥ - ٩٧٤م) أنه لما عزم على الصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك، فاختار له دعاء.

ولم تكن خطبة الجمعة عند المسلمين عظة بالمعنى الأوروبي[٦] بل كانت أشبه بطقس كنسي (لثرجيا)[٧]، فيها للخطيب من حرية التصرف ما لا يكون له في بقية مراسيم صلاة الجمعة. ولذلك كان لا ينتظر من الخطيب أن يأتي في كل جمعة بشيء جديد.

على أنه يحكى عن أبي سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن (المتوفى عام ٤٩٤هـ= ١١٠١م) خطيب الجامع المنبعي بنيسابور، أنه لبث يخطب خمس عشر سنة

---

[٦] - ((صلى الله عليه وآله)redigt).

[٧] - (Liturgie).

ينشيء في كل جمعة خطبة جديدة جامعة للفوائد معدودة من الفرائد.

وكان أشهر خطباء القرن الرابع ابن نباتة (المتوفى عام ٣٧٤هـ=٩٨٤م)، خطيب سيف الدولة بحلب، وديوان خطبه أعظم مظهر تجلى فيه فن الخطابة في ذلك العهد.

وإذا كان في مأثور الروايات الإسلامية أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) كانت خطبه قصيرة، ولم يكن كخطباء العرب، فأقل مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام من شيء بغيض ممجوج، وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدقين.

ويحكى عن عمار بن ياسر أنه تكلم يوماً فأوجز، فقيل له: لو زدتنا! فقال: أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بإطالة الصلاة وقصر الخطبة. ولذلك كانت الخطبة الكبرى عند ابن نباتة لا تزيد عن الخمس دقائق. وتبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على النبي في إيجاز، وبعدها يجلس الخطيب لحظة قصيرة، ثم يقف لإلقاء الخطبة الثانية، وقصر البرهة بين هاتين الخطبتين مضرب المثل.

ويختم ابن نباتة خطبه دائماً بآيات من القرآن، ثم يقول في آخر كل خطبة عبارات ثابتة وهي: بارك الله العظيم لنا ولكم ولسائر المسلمين. وكان الدعاء في الخطبة الثانية أقصر قليلاً مما هو عليه اليوم. وفي الخطبة الثانية كان من عادة الخطيب أن يحول وجهه إلى اليمين وإلى الشمال عند الصلاة على النبي. وكان هذا الجزء من الخطبة موضع احتفاء وشعور خاص. وكان للصلاة على النبي شأن كبير حتى نجد عند ابن نباتة صوراً مختلفة للصلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ما شاء.

ويحكي ابن خلكان من مناقب أحد الخطباء المتأخرين، وهو شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، أنه ترك السجع في خطبه حين ولي الخطابة رجوعاً إلى طريقة السلف.

ويحتوي ديوان ابن نباتة من خطب الأعياد على خطب تقال في رأس السنة، وفي يوم وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وفي شهري رجب ورمضان وفي عيد الفطر.

وكانت الخطب الجهادية ثمرة من ثمرات أيام سيف الدولة بما كان فيها من حروب، وهي لا تقل روعة عن أجود الخطب الحربية التي أثرت عن القدماء.

ملابس الخطباء

أما فيما يتعلق بملابس الخطباء فلم تكن الحكومة تعني إلا بتعيين اللون الذي عليهم أن

يتخذوه: فحيث كان يخطب لبني العباس كان الخطباء يتخذون السواد الذي هو اللون الرسمي للعباسيين، وحيث كان يخطب للفاطميين كان الخطباء يتخذون اللون الأبيض.

ونظراً لعدم وجود هيئة من الكهنوت وعدم وجود لباس ديني خاص فقد كان الخطباء، فيما عدا ما تقدم، يتبعون عرف الناحية التي هم فيها، ففي العراق وفي خوزستان كان الخطباء يظهرون باللباس الحربي، فيلبسون الأقبية والمناطق، على حين أنهم في خراسان كانوا لا يتردون ولا يتقبون، وإنما يكتفون بلبس دراعة.

وفي البصرة وحدها، وهي مدينة الصالحين ومدعي الصلاح في العراق، كان الخطيب الرسمي يخطب في كل صباح، وقيل إن هذه كانت عادة ابن عباس. وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرسمي يخطب يوم الجمعة فقط، ويترك الوعظ الأسبوعي للخطباء المتطوعين الذين كانوا منذ العصر الأولى يتزاحمون على ذلك وكانوا يسمون القصاص.

القصاص

وكان العامة يحبون القصاص حباً شديداً، ويحكى عن الطبري أنه أنكر على قاص ببغداد، فرمى العامة باب داره بالحجارة، حتى سدوه وصعب الخروج منه.

وكان القصاص في أواخر القرن الرابع أكثر مثيري الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة، ويضع الهمذاني في المقامة الساسانية القصاص بين طبقة المشعوذين الممخرقين من بني ساسان.

الذكر

وحوالي ذلك العصر فقد القصاص كل ثقة من جانب أهل التقى والصلاح، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم، وهي طائفة المذكرين، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر. وقد نشأ مجلس الذكر من قعود بعض الصالحين للتسبيح متنفلين بعد انقضاء الصلاة.

وقد أجهد نفسه في أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاص، وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلم ارتجالاً ومن غير تقيد، بل كان يقرأ من دفتر.

وقد بقي الذكر في أثناء القرن الثالث الهجري كله يعتبر قليل القيمة، ويندر أن نجد له ذكراً في كتاب العلماء في ذلك القرن، فلما جاء القرن الرابع انفصل الذكر عن الدعاء غير الإجباري، الذي يقال لغرض معين، وصار يقصد به الدعاء القصير المتكرر على هيئة المناجاة لله، والتحية، وما يقال عند الطعام وفي الصباح والمساء، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله في أثناء عملهم اليومي، وجعل لهذا العمل الديني شأن كبير.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة).

وكان لعبد الله بن عباس خمسمائة أصل زيتون يصلي في كل يوم إلى كل أصل ركعتين، فكان يدعى ذا الثفنات.

على أنه حل محل الحصى أو حب الزيتون في إحصاء العبادات شيء جاء من المشرق، وهو السبحة، وأول إشارة تدل على استعمالها من حيث التاريخ ما جاء في قصيدة لأبي نواس، وهو في السجن في عهد الخليفة الأمين (١٩٣- ١٩٨هـ =٨٠٨-٨١٣م)، وفي هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الربيع بقوله:

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتنيه، والخير عاده
فارعوى باطلي، وأقصر حبلي وتبدلت عفة وزهاده
المسابيح في ذراعي والمصحف في لبتي مكان القلادة[٨]

[٨] – ورد في الحديث إن فاطمة (عليها السلام) جعلت السبحة.

المواعظ

وكان من أشد الخطب الدينية قوة وتأثيراً بين المسلمين المواعظ التي كان يتطوع للقيام بها أهل الفصاحة واللسن، علماء كانوا أو غير علماء، مقبلين على ذلك إقبالاً شديداً، وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ الناس في أيام الصوم من رمضان وفي أيام الجمع بعد تأدية الصلاة. وهذه هي العادة الجارية اليوم في مصر على الأقل. وكان من عادة الكثيرين أن يستدعي أحدهم واعظاً مشهوراً، ويقول له عظني أو خوفني. وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول.

ولما دخل عضد الدولة بغداد، وكان أهلها قد هلكوا قتلاً وحرقاً وجوعاً، نظراً للفتن التي اتصلت فيها بين الشيعة والسنة، أمر بمنع القصاص من القصص، لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال والنهب.. ولكن ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر، فجلس على كرسيه يوم الجمعة، وتكلم في الناس، فأمر عضد الدولة بإحضاره بين يديه، فأحضره شكر المعتضدي، وخشي عليه من مكروه يحل به من عضد الدولة، وأوصاه أن يقبل التراب ويتلطف في الجواب، وأن يسلم بخشوع وخضوع، ودخل ليستأذن له من عضد الدولة، فإذا هو إلى جانبه أمام الملك، وقد حول وجهه نحو دار بختيار، واستفتح فقرأ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾[٩].

ثم حول وجهه نحو الملك وقرأ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾[١٠]. وأخذ في وعظه، فأتى بالعجب، حتى دمعت عين الملك، وما رؤي منه ذلك قط، ثم أراد الملك أن يمتحنه، فأرسل إليه مالاً وثياباً، وعزم إن أخذها ليقتلنه، فردها، ولم يرض أن يأخذها، حتى لأصحابه، وقال: أصحاب السلطان أفقر إلى هذا من أصحابي، وعرف السلطان الخبر فقال: الحمد لله الذي سلمه منا وسلمنا منه.

وكان أكبر واعظ قبل ابن سمعون بنصف قرن أبا الحسن علي بن محمد الواعظ الملقب بالمصري، لأنه أقام بمصر مدة طويلة، (المتوفى عام ٣٣٨هـ =٩٤٩م)، وكان يحضر مجلس

---

[٩] – سورة هود: ١٠٢.

[١٠] – سورة يونس: ١٤.

وعظه رجال ونساء، فكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً من أن يفتتن به النساء لحسن وجهه.

بل يذكر لنا من أخبار القرن الرابع ظهور واعظة، وهي ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية (المتوفاة عام ٣٩٣هـ=١٠٠٢م)، وكان لها لسان حلو في الوعظ، وكانت زاهدة، ويحكى عنها أنها قالت: (هذا قميصي له اليوم سبع وأربعون سنة ألبسه وما تخرق، غزلته لي أمي، الثوب إذا لم يعص الله فيه لا يتخرق).

ولم يكن لهؤلاء القوم في ذلك العصر أية صيغة رسمية، فلا نجد مثلاً ذكراً لعلماء معترف بهم في ذلك القرن يخرجون لوعظ الناس.

ويحكى عن ابن الجوزي بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وعظه مائة ألف إنسان.

ولم يكن للإسلام في الواقع أية صيغة كهنوتية، بحيث كان يسمح لهؤلاء الخطباء المتطوعين المغامرين الذين يتكسبون بالوعظ أن يرتقوا المنابر في المساجد، دون أن يتعرض لهم أحد، ولم يكن بينهم وبين خطباء الجمعة الرسميين فرق سوى أنهم كانوا لا يعظون، وهم وقوف، بل كانوا يجلسون على الكراسي.

ويحكى عن أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ المشهور (المتوفى عام ٢٥٨هـ=٨٧٢م) أنه جاء إلى شيراز، فصعد المنبر، واجتمع الناس، فأول ما بدأ به أن قال شعراً:

مـــواعظ الـــواعظ لـــن تقـــبلا حتـــى يعيهـــا قلبـــه أولا
يـا قـوم! مـن أظلـم مـن واعـظ؟ خـالف مـا قـد قالـه فـي المـلا
أظهـــر بـــين النـــاس إحســـانه وبـــارز الـــرحمن لمـــا خـــلا

ثم وقع من على الكرسي، ولم يتكلم في ذلك اليوم.

المساجد

وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلاً ونهاراً في أحوال قليلة. وهي بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبدين، وكان في هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها.

ومما يحكى أنه كان يجتمع في أحد المساجد بمصر جماعة من الرؤساء للنوم وللحديث في

صحنه في الليالي المقمرة، فلما كانوا ليلة، وأكلوا وتحدثوا، انضم إليهم أحد الحواة، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوي، وانطلق ما كان فيها من الأفاعي الغريبة فأيقظ القوم، وكان معهم أطفال وصبيان، فمنهم من طلع على المنبر، ومنهم من تسلق العمد، ثم طلعوا المئذنة وناموا إلى بكرة. وكان قيم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التي تفرق شملها بعد تلك الليلة.

على أنه كان يندر أن تكون (بيوت الله) خالية أثناء النهار، وذلك في المدن على الأقل، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعاتٍ للناس، وخصوصاً المسجد الجامع، حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس، وحيث كان العلماء يعقدون حلقات التدريس، وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التي يصلي عليها، وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالم من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه في المسجد أن ترمى سجادته خارج المسجد.

وكان يبلغ النشاط في المسجد أقصاه في المساء، وهو وقت النشاط الديني عند الشرقيين، وحوالي هذا العصر الذي نتكلم عنه يحكي لنا المقدسي ما شاهده في الفسطاط فيقول: «وبين العشاءين (بالفسطاط) جامع مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة، ودخلتها مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث، فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر فإذا نحن بين مجلسين، على هذا جميع المساجد، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس».

وكانت المساجد الصغيرة بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربة منها بمثابة بيوت أخرى لهم، وكانوا يستخدمونها في منافع كثيرة، فكان التاجر مثلاً يودع في المسجد درابات دكانه التي يغلقه بها.

وفي فارس كان الناس يجلسون في المساجد ثلاثة أيام للتعزية.

ويظهر أنه في أواخر القرن الرابع حدثت بمصر عادة إضاءة المساجد بمصباح كبير يشبه التنور، ويسمى لذلك بالتنور، وكان فيه مجال لأصحاب الفن الزخرفي لكي يظهروا روائع مبتكراتهم. وفي عام (٣٨٧هـ) عمل في جامع عمرو تنور يوقد كل ليلة جمعة، وفي عام (٤٠٣هـ= ١٠١٢م) أنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تنور كبير من فضة، فيه مائة ألف درهم فضة، وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبتاه حتى ادخل فيه.

وقد ذكرت من أثاث الجامع الأزهر، الذي أنشيء بالقاهرة عام ٣٦١هـ، وجدده الحاكم

بأمر الله، ووقف عليه أوقافاً، هذه الأشياء كما جاء في كتاب الوقف:

- الحصر العبادانية.
- الحصر المضفورة.
- عود هندي ومسك وكافور للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع.
- شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور.
- أربعة أحبل وستة دلاء أدم وعشر قفاف ومائتا مكنسة.
- أزيار فخار وأجهزة حملها.
- زيت للوقود.
- تنوران فضه وسبعة وعشرين قنديلاً فضة.

وكانت المساجد تحت إشراف القاضي. وكانت عادته في القاهرة على عهد الفاطميين، إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف يوماً على المساجد لينظر حصرها وقناديلها وعماراتها وما تشعث منها.

وكان في جوامع خراسان قدور كبار من نحاس على كراسي يطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعة.

وكان في جامع ابن طولون بمصر فوارة على الصورة المألوفة حتى ذلك العهد: كان في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها، وهي مذهبة على عشرة عمد من رخام، مفروشة كلها بالرخام، وتحت القبة قصعة رخام، سعتها أربعة أذرع، في وسطها فوارة تفور بالماء.

ويحكي لنا ناصر خسرو بعد ذلك بمائة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس في بلدتي آمد وطرابلس الشام.

وكذلك كانت تجمع النفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدور إليها، ففي سنة (٢٢٦هـ=٨٤١م) كان لأحد الذين نصبوا أنفسهم لذلك أثر كبير في توسيع جامع بأصفهان، فكان يكلم الرجل بعد الرجل، حتى اجتمعت له الجمل الكثيرة، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبة غزل أو قيمتها.

وأهم ما نجده في القرن الرابع ظهور التطريب في الطقوس من القراءة والأذان من مؤذنين مجتمعين، في جميع البلاد. ويحكي ابن رسته أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً

يؤذنون جميعاً في كل صلاة، أحدهم في أثر الآخر إلا في صلاة المغرب خاصة، ثم يأخذون جميعاً في الإقامة بصوت واحد، وهم يمشون من المنارة إلى الصف، فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الإقامة.

آثار الرسول (صلى الله عليه وآله)

حكى ابن طيفور (المتوفى عام ٢٧٨هـ=٨٩١م) عن الخليفة المأمون أنه قال: وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود، أو بالخشبة، أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه، فيقول إن هذا كان للنبي (صلى الله عليه وآله)، أو قد وضع يده عليه، أو شرب فيه، أو مسه، وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل، إلا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر، ثم أضعه على وجهي وعيني، وأتبرك بالنظر إليه وبمسه، فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به، فأصونه كصيانتي نفسي، وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً، ولا فضيلة له تستوجب المحبة، إلا ما ذكر من مس رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ويحكى عن أبي العباس اليساري، وهو شيخ من شيوخ الصوفية بمرو، توفي عام (٣٤٢هـ) أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمال كثير ورثة عن أبيه، وأوصى أن توضعاً في فمه عند الممات.

وفي ذلك العصر تفاقم خطب التزوير، ففي أوائل القرن الرابع رفع إلى أبي الحسن بن الفرات أن رجلاً من اليهود ادعى أن معه كتاباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، فأمر بإخراج الكتاب، فلما قرأه. قال: هذا مزور، لأن خيبر افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً، ولكنا نحتمل عنك جزيتك إعظاماً لحق من لجأت إلى الاعتصام به.

القرآن

والأثر الوحيد الذي كان له حق لا نزاع فيه في المساجد، وشأن لا جدال فيه، وخصوصاً

بالنسبة لدين أساسه كتاب منزل هو مخطوطات القرآن، ولا سيما المصاحف التي يرجع أصلها إلى عثمان، والتي تعتبر لذلك أصح المصاحف. وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة: المصحف الذي كان عند (أسماء) والذي كان محفوظاً بجامع عمرو بمصر، وكان يقرأ منه ثلاث مرات في الأسبوع، وكان الخليفة الفاطمي يقبله ويتبرك به. وكذلك كان في الجامع الكبير بدمشق. كما حكى ابن جبير في القرن السادس الهجري. خزانة كبيرة، فيها مصحف من مصاحف عثمان، وهو المصحف الذي وجهه إلى الشام، وكانت تفتتح الخزانة كل يوم بعد الصلاة، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله، ويكثر الازدحام عليه، وهذا هو الأثر الوحيد الذي وجده ابن جبير.

ويحكي لنا المقريزي أن رجلاً من أهل العراق جاء إلى مصر، وأحضر مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان وأنه الذي كان بين يديه يوم الدار، وكان فيه أثر الدم، وذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر، فدفع المصحف إلى القاضي، فأخذه، وجعله في الجامع، وشهره، وجعل عليه خشباً منقوشاً، وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفي مصحف (أسماء) يوماً، ولم يزل على ذلك إلى أن رفع واقتصر على القراءة في مصحف أسماء أيام العزيز بالله (عام ٣٧٨هـ =٩٨٨م).

وفي عام (٣٦٩هـ=٩٧٩م) كان عند الخليفة ببغداد مصحف ينسب لعثمان، وضعه بين يديه، وعلى كتفيه البردة وبيده القضيب وذلك عند تتويج عضد الدولة.

وحكى الشريف الإدريسي أنه كان في مخزن جامع قرطبة مصحف يرفعه رجلان لثقله، فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه، وفيه نقط من دمه، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد، وأمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه.

فكان في مسجد مدينة الخليل (هبرون) نعال الرسول (صلى الله عليه وآله).

وكان في محراب الجامع بمدينة قرح المشهورة بتجارتها في جزيرة العرب عظم، قالوا هو الذي قال النبي (صلى الله عليه وآله): لا تأكلني، فأنا مسموم.

وكان علماء الدين يتجادلون ويتشاجرون فيما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديماً، وعلى

حين كان أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك (المتوفى عام ٤٠٦هـ=١٠١٥م) لا ينام قط في بيت فيه مصحف، حتى كان إذا أراد النوم انتقل عن المكان الذي فيه، إعظاماً لكتاب الله عزوجل.

على أننا نجد أبا محمد الفرغاني (المتوفى عام ٣٦٢هـ= ٩٧٢م)، وكان مقرباً عند أمير مصر، يعتبر هذه الحكاية التالية أهلاً لأن يذكرها في تاريخه، فهو يقول نقلاً عن أبي سهل الصدفي (المتوفى عام ٣٣١هـ=٩٤٢م) وهو الزاهد الورع الذي كان الإخشيد محمد بن طغج يجله ويتبرك بدعائه من غير أن يشاهده، بل بالمراسلة:

(حدثني أبو سهل بن يونس في مسجده سنة (٣٣٠هـ) قال: قدم علينا شيخ كبير راهب، كان بميافارقين، فحدثنا أنه كان مترهباً في شبابه في صومعة بميافارقين، وأنه أشرف في يوم كثير الضباب، فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه، وفي فمه قطعة لحم، فتركها، ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى، إلى أن أتى بعدة قطع، ثم أن قطع اللحم اجتمعت، حتى صارت شخص رجل، ثم أقبل الطائر عليه، ينقره ويقطعه ويأكله، وهو يستغيث، قال الراهب: فلما نظرت إليه صحت به وقلت له: ما قصتك يا إنسان؟ وما الذي أرى بك؟ قال: أنا عبد الرحمن بن ملجم، قاتل علي بن أبي طالب t، وقد وكل الله بي هذا الطائر، يفعل بي ما ترى، وينقلني من موضع إلى موضع، قال الفرغاني: قال أبو سهل. قال لنا الراهب: فلما نظرت منه ما رأيت انحدرت من الصومعة، فأسلمت).

أهل الكدية

ومما حكاه المسعودي وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجري، وهي من قلم أبي دلف الخزرجي شاعر الملح والطرف، فقد ألف قصيدةً مشهورة تسمى القصيدة الساسانية، ذكر فيها المكدين ونبه على فنون حرفهم، وأنواع رسومهم، وهي وشرحها ذخيرة كبيرة تستقى منها معلومات كثيرة متنوعة عن أحوال ذلك العصر الاجتماعية، وقد عرفنا بني ساسان من المقامة الساسانية للحريري، وفيها يوصي أبو زيد السروجي ابنه بلزوم حرفة بني ساسان. وقد بين أبودلف في قصيدته أصناف المكدين والممخرقين والمحتالين من أسوأ طراز، ونجد فيهم القاص إلى جانب سائر المحتالين، يقول أبو دلف:

ومن قص لإسرائيل أو شبراً على شبر

وهو الذي يروي الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار، ويقال لها الشبريات

ومن يروي الأسانيد وحشو كل قمطر

وهؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق

ومن ضرب في حب علي وأبي بكر

وهم قوم يحضرون الأسواق، فيقف واحد جانباً، ويروي فضائل علي t، ويقف الآخر جانباً، ويروي فضائل أبي بكر، فلا يفوتهما درهم الناصبي والشيعي، ثم يتقاسمان الدراهم.

وقد استمرت هذه الحال، وفي القرن السادس الهجري نجد ابن الأثير يجمع بين القصاص والمشعبذين في عبارة واحدة. وليس الجمع بينهما غريباً، إذ عرفنا ما ذكره ابن الجوزي (ص ١٠١- ١٠٦) من حيلهم حوالي ذلك العصر، فمنهم من كانوا يدهنون وجوههم بما يجعلها صفراء تشبها بالنساك الصائمين، وكان آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم، متى أرادوا، ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو بضربها برجله، إيهاماً للناس بشدة انفعاله، وكان فريق يخدعون النساء باتخاذ اللباس الحسن.

وعلى حين كان القصاص القدماء موضع تقدير العلماء وإعجابهم، لما كان في تعاليمهم من روح دينية وخلقية، نجد القصاص المتأخرين قد شوهوا الدين طلباً لتسلية العامة، وكانوا

يوهمون الناس بعلمهم من طريق التكلف أحياناً في بيان أصول الكلمات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم، وقد عملوا على نشرها، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم، فزعم بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذي عبده القوم. وذكر آخر اسم الذئب الذي زعم أنه أكل سيدنا يوسف، فلما قيل له إن يوسف لم يأكله الذئب، قال هو اسم هذا الذئب الذي لم يأكله.

بعض العادات السيئة

استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تهيأ هذه البيوت بالخصيان، وقد حرم الإسلام ذلك وشدد القرآن وشددت السنة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم، ووكل لوالي الحسبة أن يمنع ذلك ويؤدب عليه، وهذا أيضاً. كما في نواحٍ أخرى. دخل على الإسلام حوالي (عام ٢٠٠هـ=٨١٥م)، بسبب تقلص ظل الروح العربية عادات شرقية قديمة، رغم ما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) في شأنها من الإنكار والمنع الصريح. وذلك أن الخليفة الأمين، وهو ابن هارون الرشيد، لما ملك، بلغ من كلفه بالخصيان أنه طلبهم، وابتاعهم، وغالى بهم، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية، و فرضاً من الحبشان سماهم الغرابية، ورفض النساء الحرائر والإماء، حتى رمي بهن حتى قال أبو نواس ساخراً:

احمدوا الله جميعاً يا جميع المسلمينا!
ثم قولوا، لا تملوا : ربنا أبق الأمينا!
صير الخصيان، حتى صير التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعاً بأمير المؤمنينا

وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان، تاركين لليهود والنصارى إثم هذا العمل الشنيع. وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، أن مدينة هدية بالحبشة النصرانية هي التي كان يداوى بها الخصيان

دون غيرها من بلاد الحبشة. على أنه في أوائل القرن التاسع عشر كان في الصعيد بمصر ديران قبطيان دخلهما الأساسي مصدره الخصاء، وكان هذا يعمل بنسبة كبيرة، حتى كان يكفي لتموين مصر كلها وجزء من تركيا بالخصيان). وكان بعض القبط بمدينة أسيوط يتجرون بشراء صغار العبيد السود وخصائهم، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل، أما الباقون فكانوا يباعون بما يبلغ عشرين ضعفاً من ثمن شرائهم.

ويذكر المقدسي أن الخدم البيض صنفان:

١. الصقالبة، وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس، فيخصون ثم يخرجون إلى مصر.

٢. الروم، وهم يقعون إلى الشام وأقور، وقد انقطعوا بخراب الثغور. وسألت جماعة منهم كيف يخصون، فتحصل لي أن الروم يسلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس، لئلا يشغلوا بالنساء، وتؤذيهم الشهوة.

أما الخدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة خلف بجانة أهلها يهود، وكانوا يقومون بخصائهم.

وقد اختلف في الخصاء نفسه، فقال البعض: يمسح القضيب والمزودان في مرة واحدة، وقال بعضهم: يشق المزودان وتخرج البيضتان، ثم تجعل تحت القضيب خشبة، ويقط من أصله، وإذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرود رصاص، يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كي لا تلتحم.

وكانت هذه العملية الشنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم، وكان الخصيان دائماً يلقون من العوام كثيراً من السخرية.

وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقصاص وأصحاب النوادر والمضاحك في الطرق، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس إليهم.

ولم يكن الخصيان يمنعون إلا من الوظائف الدينية.

الغلاميات

وقد ظهرت مع اتخاذ هؤلاء الخصيان عادة جديدة تستلف النظر وهي إلباس الخادمات ثوب الخدم. يحكي المسعودي أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن، وألبستهن الأقبية والمناطق، فماست قدودهن، وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إليه، فاختلفن بين يديه، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة، فاتخذ الناس الجواري المطمومات، وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسموهن الغلاميات.

ونجد في قصور الخلفاء بعد ذلك بقرن جواري يلبسن ملابس الغلمان، وكذلك امتدت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشراب.

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طول العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربية، ولم يكن ثم ما يدعوا الفقهاء الأولين إلى الكلام في ذلك. أما في القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء في اللواط بالغلمان اختلافاً بيناً. فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم، وأراد آخرون أن يفرقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك، وقالوا إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثاني، والأكثرون على أنه لا حد فيه، وهو يوجب التعزير من القاضي.

وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام يستهتر به أغن الصوت، غناجاً، ألثغ السين.

على أنه كان شاطئ دجلة مكان للهو فيه إلى جانب الخمار والخمر (ظبي غرير) أو (ظبية غريرة)، وقاصده لا يدفع لهذا كله في الليلة إلا درهمين.

وكان بعض العلماء يمنعون الشبان غير الملتحين من حضور دروسهم، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية، وكان بعض الصبيان الشديدي الإقبال على التعلم يتخذون لحي مصطنعة، ليمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء.

البغاء

أما البغاء فشأنه شأن نظام الخصيان، وقد انتشر البغاء على الرغم من إن الإسلام أباح الزواج بأكثر من واحدة ومن أن العرف كان ينكر البغاء، بحيث كان الرجل الأعزب أو الفتاة بدون زوج، بعد هذا كله، يبدو أمراً شاذاً جداً، وأيضاً على الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً فقضت أن يرجم حتى يموت، على أن الشارع شدد واحتاط في إثبات تهمة الزنا إلى حد لم يمكن معه الحكم بهذه العقوبة، وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠هـ٩١٢م حال البغاء في الصين وتكلم عن الزواني، وهن يثبتن في ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزواني، وعليهن في كل سنه ضريبة يؤدينها لبيت المال، ثم قال: ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن.

ومما اختصت به مدينة اللاذقية أن المحتسب فيها كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة، ثم يؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمى خاتم المطران، ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها، وإن وجد خاطيء مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب، على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم.

وفي عام (٣٢٣هـ=٩٣٤م) قام الحنابلة، وهم المسلمون المتطرفون، لمطاردة المنكر في بغداد، وعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامة، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، وصاروا يعترضون في البيع والشراء، وفي مشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو، فأخبرهم، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، حتى أرهجوا بغداد.

على أن الماوردي يقول: إن المحتسب إذا رأي وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل، لم يظهر منهما أمارات الريب، لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار، فما يجد الناس بداً من هذا، وإن كانت الوقفة في طريق خالٍ، فخلو المكان ريبة، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها، حذراً من أن تكون ذات محرم، وإن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب، وإن كانت

أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى.

النساء

على أنه في هذه الناحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النظريات الشرعية، وقد لاحظ العرب تلك الحرية الكبيرة التي تركها رجال القبط لنسائهم، وعلل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعون وقومه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجراء، ولم يصبر النساء على الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، تتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن، فأجابوهن إلى ذلك، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال.

قال يزيد ابن أبي حبيب: إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم، إتباعاً لمن مضى منهم، لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا قال أستأمر زوجتي، وقد احتفظ النساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك، فيقول المقدسي إن النساء بمصر لا يتورعن عن الفجور، للمرأة زوجان.

ويظهر أنه في تلك العصور ظهر صوت يطالب للنساء بالحق في المهام الكبيرة حوالي عام (٣٠٠هـ=٩١٢م)، لأن ابن بسام الشاعر يقول:

مـــــا للنســـــاء وللكتـــــا بـــة والعمامـــة والخطابـــه
هـــــذا لنـــــا، ولهـــــن منـــــا أن يبـــتن علـــى جنابـــه

وكان من النساء عالمات بالدين، يقبل الناس على دروسهن مثل (ستيتة) بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي، وكان ابنها أيضاً قاضياً، وتكنى أم الواحد، كانت فاضلة عالمة، ومن أحفظ الناس للفقه على مذهب الشافعي، وكانت تفتي مع العلماء، وحدثت وكتب عنها الحديث، وتوفيت عام (٣٧٧هـ)، ومثل (أم الفتح) بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التي توفيت عام (٣٩٠هـ) ، وأخذ عنها كثير من العلماء، وكانت موصوفة بالديانة والعقل والفضل.

ومن الفقهاء من جوز للمرأة أن تتولى القضاء، فتقضي فيما تصح شهادتها فيه، وهو أبو حنيفة، وجوز ابن جرير الطبري قضاءها في جميع الأحكام.

وخلفاء القرن الرابع كلهم أمهاتهم جوار صقلبيات، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوجون غير المملوكات إلا نادراً، ونظراً لغلبة المملوكات على الخلفاء سميت زوجة أحدهم بالحرة.

وقد بين الجاحظ العلة التي من أجلها صار اكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء فيها وعرفه، ما خلا حظوة الخلوة، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه، أما الحرة فإنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولاكثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، فأما الخصائص التي تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها.

وكان ميلاد البنت على العموم مناسبة للتهنئة الحقيقية، وقد كتب الشريف الرضي إلى أخيه مهنئاً بمولودة:

الآن جاءت خيول السعد راكضة تجري بيوم مضيء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته فطوق المجد أعناق المواليد
مولودة تهب الراءون بهجتها لثماً، وعانقتها في ثوب محسود

المادية، وقلة الكرامة

ثم عادت إلى الظهور الأوضاع القديمة لعالم قديم، وأصبحت فيها للمال قوة عظيمة، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى، وكل شيء صار يعرض من أجل المال، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة.

وقد نشأ عن قلة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلة تقديره لكرامة الغير.

وفي سنة (٢٦٨هـ = ٨٨٤م) خالف العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، وخرج عليه، وهو بالشام، وسار إلى برقة، فسير إليه أبوه جيشاً هزمه، وقبض عليه وعلى من كان معه، وأراد أن يعاقبهم، فنصب دكة عظيمة رفيعة السمك، وجلس في علو يوازيها، وشرع من ذلك العلو إليها طريقاً، ووقف العباس بين يدي أبيه في خفتان ملحم وعمامة وخف، وبيده سيف مشهور، وكان أعوان العباس في الثورة ومن حسن له الخروج على أبيه جالسين على الدكة، فكان الواحد منهم يضرب بالسوط، ثم يؤمر العباس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف، ثم يلقى من الدكة إلى الأرض.

ولما خلع الوزير حامد بن العباس لم يزل ابن الفرات . وهو الذي خلفه على الوزارة بالخليفة حتى سلمه إليه، فكان يصفع ويضرب، وكان المحسن، ابن الوزير الجديد، يخرجه إذا شرب، فيلبسه جلد قرد، له ذنب ويقيم من يرقصه ويصفعه، ويشرب على ذلك، وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس، ولا يستجيزها ذو دين ولا عقل.

على أنه تروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) حكاية تصور لنا مقدار شعور المسلم بكرامته، حكى ابن هشام أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية، حليف ابن عدي بن النجام، وهو مستنتل (مستنصل) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استو يا سواد! فقال: يا رسول الله أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني! قال: فكشف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن بطنه، فقال:

استقد، فاعتنقه سواد، وقبل بطنه[11].هذا مثال لشعور المسلم الأول بكرامته.

التعذيب

أما في القرن الرابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة. ويحكى عن الأمير معز الدولة أنه في سنة (٣٤١هـ) ضرب وزيره أبا محمد المهلبي بالمقارع مائة وخمسين مقرعة، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب، حتى يوبخه ويبكته، ثم يعيد عليه الضرب، ولكن هذا الوزير قَبِل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة، ولم يجد الأمير ذلك بعجيب. وقد تولى الوزارة بمصر في القرن الخامس رجل كانت يداه قد قطعتا بسبب الخيانة. وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزنوج، حيث لا يتولى أحد قيادة القوافل إلا بعد أن تمتحن مقدرته على احتمال الضرب بالسياط.

وكان الثوار الذين يؤسرون، وسلاحهم في أيديهم، يعاملون بحسب جرمهم وعلى قدر ما أثاروه من سخط ورعب. وكان الأسرى الأجانب يعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد. ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع الماء، فنزحوها وألقوا فيها

[11] – هذه القصة لا اصل صحيح لها، لأنه ﷺ معصوم لا يخطأ (م). اللهم إذ قلنا ان سوادة أراد ان يقبل بطنه على تفصيل ذكره الإمام المؤلف في كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج٢.

الحنظل، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغاً كبيراً، وهلك منهم خمسة عشر ألفاً، عوقبوا بأن أشهروا وحبسوا، وأجيع منهم جماعة، وأطعموا المالح، ثم تركوا على دجلة، حتى ماتوا عطشاً وحسرةً، وهم يشاهدون الماء.

وفي عام (٢٨٩هـ = ٩٠١م) قبض على ابن أبي الفوارس القرمطي، فقلعت أضراسه أولاً، ثم خلع بمد إحدى يديه ببكرة وتعليق صخرة في الأخرى، وترك على هذه الحالة من نصف النهار إلى المغرب، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم، وضربت عنقه وصلب.

وفي عام (٢٩١هـ=٩٠٣م) قبض على (صاحب الشامة)، وهو أحد قواد القرامطة القساة، وكان يذبح المسلمين كما تذبح الأنعام، وأدخل هو وأصحابه بغداد. وقد عزم الخليفة على أن يشهره، حتى يراه الناس جميعاً، فأمر أن يصلب على دقل، والدقل على ظهر فيل، وأمر بهدم طاقات الأبواب التي يجتاز بها الفيل، ثم استسمج ذلك فأمر بعمل كرسي، وركبه على ظهر الفيل في ارتفاع ذراعين ونصف، واقعد فيه القرمطي، وسار بين يديه الأسرى مقيدين على جمال، وعليهم دراريع وبرانس من حرير، وكان بينهم المطوق أحد أصحاب القرمطي وهو غلام لم تنبت لحيته، وقد جعلت في فمه خشبة مخروطة، وألجم بها فمه، ثم شدت إلى قفاه كاللجام، وذلك أنه لما دخل الرقة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه، ويبزق في وجوههم، فجعل ذلك في فمه، لئلا يتكلم، ثم أمر المكتفي ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع لقتل القرامطة، وذكر عن (صاحب الشامة) إنه أخذ وهو في حبس المكتفي سكرجة من المائدة التي كانت تدخل عليه، فكسرها، وقطع بشظيةٍ منها عروقه، فسال منه دم كثير، فترك أياماً بعد أن شدت يده إلى أن رجعت إليه قوته، ثم قدم قواد القرامطة، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد، وكانت ترمى جثثهم وأعضاؤهم من أعلى الدكة إلى الأرض، ثم قدم "صاحب الشامة" فقطعت يداه ورجلاه، وأضرمت نار عظيمة وأدخل فيها خشب صليب، وكانت توضع الخشبة الموقدة في خواصره وبطنه، وهو يفتح عينيه ويغمضهما، حتى خشي عليه أن يموت، فضربت عنقه، ورفع رأسه في خشبة، وكبر من كان على الدكة، وكبر سائر الناس في أسفلها، ثم ضربت أعناق الأسرى، فلما كان الغد حملت الرءوس إلى الجسر، وصلب بدن القرمطي على الجسر الأعلى ببغداد.

وإذا عرفنا أن قطع اليد والرجل عقوبة قضت بها الشريعة الإسلامية من قبل[١٢]، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار في مراكش، ثم نظرنا بعد هذا في قائمة العقوبات المروعة التي كانت في متناول الحكام في مثل هذه الأحوال في أواخر العصور الوسطى الأوروبية، لوجدنا، مع شيء من الراحة، أن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا من حيث قوة الحاكم المتسلط وغلظته بمن يقع في يده.

ولما خرج ياقوت لمحاربة عماد الدولة بن بويه أخذ معه برانس لبود، وعليها أذناب الثعالب، وقيوداً وأغلالاً، وذلك ليجعلها على ابن بويه وأصحابه، ويشهرهم بها في البلاد، ولكن ياقوتاً هزم، ووجد ذلك معه، فأشار أصحاب ابن بويه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثل ذلك، فامتنع، وقال إنه بغي ولؤم ظفر، ولقد لقي ياقوت بغيه، ثم أحسن ابن بويه إلى الأسارى.

لا اقرار تحت التعذيب

وأما القسوة وإلحاق الأذى من جانب القاضي الذي يحقق في مسألة . ولهذه القسوة في تاريخنا [١٣] صحائف طويلة مملوءة بالفظائع . فقد منعتها الشريعة الإسلامية، وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذي يكره عليه الإنسان بالأذى والتعذيب أو بمجرد صياح القاضي به، إقراراً باطلاً غير قانوني.

وثم ضروب أخرى من التعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولون مسائل الإدارة والخراج، ليكرهوا الناس على إخراج المال. وكان التعذيب الذي اختصوا به أن يعلقوا من يبتلى بهم من يده أو رجله، ويتركوه معلقاً حتى تنحل قوته. وأقسى عقوبة عند القاضي المسلم هي الرجم للشخص المحصن إذا زنى، وهي عقوبة كأنها لم تفرض، لأن الشريعة تحتم في الإثبات شروطاً يكاد توفرها يكون مستحيلاً. وكذلك جعلت الشريعة عقوبة من أخذ وقطع الطريق وحارب أن تقطع يده ورجله، فإن قتل قتل. وعقاب السارق قطع اليد. وفي سنة (٣١٢هـ=٩٢٤م)

---

[١٢] – هناك عشرات الشروط المذكورة في الفقه.

[١٣] – أي تاريخ المسيحيين.

قبض على أعجمي وجد في دار الخلافة، وظن به أنه كان يريد أن يفتك بالمقتدر، فضرب وعنف، فلم يقر بخبره، وعوقب حتى تلف، ثم صلب، ولف عليه حبل من قنب ومشاقة، ولطخ بالنفط، وضرب بالنار.

وفي سنة (٣٩٢هـ =١٠٠١م) سمل أحد العمال المكروهين، فمات، فبعد أن دفن نبشه أهل البلد واحرقوه لسوء معاملته لهم ولما قدم من القبيح إليهم. ولا أعلم أن أحداً من المسلمين في ذلك العصر أحرق وهو حي قط.

ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له إظهار الزهد غرق بعض حظاياه وأمهات أولاده، وذلك بأن وضعن في صناديق وسمرت عليهن وثقلت بالحجارة وألقيت في النيل.

على أن مؤرخي النصارى بنوع خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النصارى، فاتهموه مثلاً بأنه عذب أورستيس بطريرك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس في شهر مايو، ولكن يحيى بن سعيد المؤرخ النصراني الذي كان معاصراً لهذا البطريرك يؤكد ثلاث مرات أنه مات في القسطنطينية.

وفي عام (٢٥٥هـ =٨٦٩م) خُلع الخليفة المعتز، ويقول المسعودي الذي ولد بعد هذا التاريخ بقليل: إن أصحاب السير والتواريخ تباينوا في مقتله، فمنهم من ذكر أن المعتز مات في خلافة المهتدي بالله حتف أنفه، ومنهم من ذكر أنه منع في حبسه من الطعام والشراب، فمات عند قطع الغذاء عنه، ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلي، فمن أجل ذلك وجد جوفه وارماً حين أخرج للناس. والأشهر بين من عني بأخبار العباسيين أنه أكره على دخول حمام محمى ومنع الخروج منه، ثم تنازع هؤلاء، فمنهم من قال أنه ترك في الحمام، حتى فاضت نفسه، ومنهم من قال إنه أخرج، بعد أن كاد يتلف، وسقي ماء مقروراً بالثلج، فنثر كبده وأمعاءه، فخمد من فوره. أما أبو الفداء، وهو مؤرخ متأخر، فيقول إنهم أدخلوه سرداباً جصصوه عليه، فمات.

وقد اختلف أيضاً في قتل المهتدي الذي ولي الخلافة بعد المعتز: فقيل إنه قتل خنقاً، وقيل كبس عليه بالبساط والوسائد حتى مات. ومن المؤرخين من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين، وشد بالحبال إلى أن مات، وقيل إنه أعصرت مذاكيره إلى أن مات، والأشهر عند

المسعودي أنه قتل بالخناجر.

وكذلك يحكي ابن الأثير، وهو مؤرخ متأخر: إن ابن المعتز، وهو الخليفة الذي قتل عام (٢٩٦هـ=٩٠٩م) عصرت خصيتاه حتى مات.

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت عادة سمل الخلفاء للحيلولة دون توليهم منصب الخلافة وذلك احتذاء لعادة الروم البوزنطيين من قبل. وكان أول من ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر، حينما أرسل إليه القضاة والشهود، ليقر على نفسه بالخلع، فأبى أن يحل الناس من بيعته، وذلك في عام (٣٢٢هـ=٩٣٤م). واستدعي أحمد بن أبي الحسن الصابي، فكحله بمسمار محمى دفعتين. وكان المتقي ثاني من سمل عام ٣٣٣هـ ٩٤٤م، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التركي، فلما صاح المتقي صاح معه النساء والخدم، فأراد توزون أن يخفى الصراخ، فأمر بضرب الدبادب.

وهذا تعلمه المسلمون أيضاً من الرومان البوزنطيين.

وأما القتل شنقاً فلم يكن متبعاً، ولا أعلم إلا مثالاً واحداً يشبه ذلك، وهو أن أحد الوزراء علق بأن عمل في قلبه كلابين، فلم يزل يضطرب، حتى مات.

وأما القتل بالسم، أمثلة ذلك القتل بالبيض المسموم، كما يقول المؤرخون القدماء المعاصرون للوزير حامد بن العباس . وكان قد جاوز الثمانين . وذلك بحسب تخمين الوزير نفسه.

بل يذكر في حكاية من أقدم حكايات السم وقعت في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ . ١٧٠هـ= ٧٨٥ . ٧٨٦م) وقيل غير ذلك، وقد ذكر المسعودي وهو من مؤرخي ذلك العهد ما قيل في وفاة المعتضد، وقيل مات بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله، فكان يسري في جسده، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم... ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا [١٤].

وكان من بين الحكام القساة القلوب في ذلك العصر المعتضد والقاهر، ويحكى من

[١٤] – كما إن الأئمة ﷺ ماتوا بالسم حتى الإمام الحسين ، الذي أصابه أيضاً سهم مسموم هكذا والامام أمير المؤمنين حيث ضربه ابن ملجم بالسيف المسموم، وفي التواريخ إن الرسول (صلى الله عليه وآله) مات بالسم.

تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرجل، فيأمر بتكتيفه وتقييده، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومه وفمه بالقطن، وتوضع المنافخ في دبره، فإذا صار كالزق المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه، سد دبره، وضرب في عرقين فوق الحاجبين، فعند ذلك يخرج منهما الريح والدم، ولهما صوت وصفير، حتى يخمد ويتلف.

أما فظائع القاهر فكانت أكثر مناسبة لطبيعته السيئة، فيحكى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبي السرايا نصر بن أحمد في بئر، حيين مقيدين، وتضرع أحدهما وسأله العفو، فلم يلتفت إليه، وتعلق بسعف نخلة كانت قريبة من البئر، فأمر القاهر بضرب يديه، ودفعه في البئر إلى جانب صاحبه. ثم أمر بطم البئر بالتراب، حتى امتلأ، وهو واقف.

ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلي بن يلبق وابنه، ثم ذبح علي بحضرته، وحمل رأسه إلى أبيه، ثم ذبح يلبق، وحمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس، فلما رآهما، لعن قاتلهما، فأمر القاهر به، فجر برجله إلى البالوعة، وذبح كما تذبح الشاة، والقاهر يراه. ثم أخرجت الرؤوس الثلاثة في ثلاث أطسات إلى الميدان، حتى شاهدها الناس، وطيف برأس علي بن يلبق في جانبي بغداد، ثم رد إلى دار السلطان، وجعل مع الرءوس في الرؤوس.

وكان القاهر أيضاً قتل رجلاً . وهو أمير عباسي كان طامعاً في الملك . بأن أمر به أن يقام في فتح باب ويسد عليه بالجص والآجر، وهو حي.

ويحكى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عماله حوالي (عام ١٠٠هـ=٧٠٠م) بأن لا يغل مسجون.

وفي عهد هارون الرشيد رأى الفقهاء أن أهل الدعارة والفسق والتلصص، إذا أخذوا في شيء من الجنايات وحبسوا، فلابد أن يجرى عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوتهم، ويجري على كل منهم عشرة دراهم في الشهر، تعطى له في يده، دفعاً لظلم السجان لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم وشرابهم، ولابد أن يكسوا في الشتاء قميصاً وكساءً وفي الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعةً، وذلك إغناء لهم عن الخروج في السلاسل لطلب الصدقة.

الزكاة

أما الزكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشريعة حداً أدنى، وهو نصف العشر من الثروة لا من الدخل، وذلك في كل سنة. وقد نقل من أخبار المتدينين الأتقياء وغير الأتقياء حكايات كثيرة تدل على سمو شعورهم في الصدقات.

ويحكى عن أبي عبد الله بن أبي ذهل الضبي الهروي (المتوفى عام ٣٧٨هـ=٩٨٨م) أنه كانت تضرب له الدنانير، وزن الدينار منها مثقال ونصف أو أكثر، فيتصدق بها، ويقول: (إني لأفرح، إذا ناولت فقيراً كاغداً، فيتوهم أنه فضة، فإذا فتحه ورأى صفرته فرح، ثم إذا وزنه، فزاد على المثقال، فرح أيضاً). وكانت لهذا الرجل غلة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عشرها، والباقي يفرقه على المستورين وسائر المستحقين.

ويحكى عن دعلج بن أحمد بن دعلج أبي محمد السجزي، وكان تاجراً غنياً وعالماً (توفي عام ٣٥١هـ =٩٦٢م)، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً.

ويحكي عن أحد التجار المشهورين بكثرة المال ببغداد أنه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمائة خشكنانكة، في كل منها دينار.

ويحكى عن جحظة الشاعر (المتوفى عام ٣٢٤هـ = ٩٣٦م) أنه وقع في ضيق شديد، حتى صار بيته أفرغ من فؤاد أم موسى، فعرف حاله أحد العمال المتقاعدين، فزاره، وأحضر له من بيته فرشاً وقماشاً وكل ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة، وجلس عنده طول يومه. وفي اليوم التالي أرسل إليه كيساً فيه ألفا درهم ورزمة ثياب من فاخر الثياب. ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه، فقال له: احفظ بابك! فكل ما في دارك لك.

وكان لأحد الكتاب أم صالحة، فعودته منذ ولد أن تجعل تحت رأسه عند نومه في كل ليلة رغيفاً، فيه رطل، فإذا كان الصباح تصدقت به، فظل ابنها يفعل ذلك طول حياته.

وكان في بلاد كرمان نخيل كثير، وكان لأهلها سنة حسنة فكانوا لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح، فيأخذه غير أربابه، وربما كثرت الرياح، فيصير إلى الضعفاء والمساكين من التمور في التقاطهم أكثر مما يصير إلى أربابه.

اليتامى

ونظراً لأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يتيماً، فقد صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفاً خاصاً، وإن لم يجمعوا في بيوت أعدت لهم، ففي أصفهان مثلاً كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله، ويدهن رؤوسهم.

المرضى والمارستانات

وأول من بنى داراً للمرضى في الإسلام بعض المسلمين، ثم جاء البرامكة، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد، فأسسوا بيمارستاناً أسندوا رياسته لطبيب هندي.

ويحكى عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله: (وانصب لمرضى المسلمين دوراً توقيهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم).

وبنى أحمد بن طوطون عام (٢٥٩هـ=٨٧٣م) أول مارستان كبير بمصر، وكان به حمامان، أحدهما للرجال، والثاني للنساء، وشرط في هذا المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وإذا جاء العليل، أن تنزع ثيابه ونفقته، وتوضع عند أمين المارستان، ثم يلبس ثياباً ويفرش له، ويعالج حتى يبرأ، فإذا أكل فروجاً ورغيفاً أمر بالانصراف، وأعطي ماله وثيابه. وقد أنفق ابن طولون على هذا المارستان ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقد المارستان والمرضى.

وكذا جعل في المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة وطبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج، وكان في المارستان قسم للمجانين، على حين أنه كان ببغداد مارستان كبير خاص بالمجانين، وهو دير هزقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط.

وفي عهد الخليفة المعتضد(٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق المتطببين والمأانين والكحالين، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم، والبوابين والخبازين وغيرهم، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة، أربعمائة وخمسين ديناراً في الشهر.

ثم زادت المارستانات في بغداد زيادة كبيرة، وفي سنة (٣٠٤هـ) كانت خمسة تقلدها طبيب غير مسلم، وهو سنان بن ثابت، وبفضل هذا الطبيب الكبير وإشارته فتح ببغداد

(عام ٣٠٦هـ=٩١٨م) مارستانان آخران كبيران، أحدهما اتخذه الخليفة نفسه، وسمي المارستان المقتدري، وكان يقع في باب الشام، والثاني بيمارستان أم المقتدر، اتخذه لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة، ورتب له المتطببين. وكانت النفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص، وبلغت مائتي دينار في كل شهر. أما نفقة مارستان السيدة فكانت ستمائة دينار في كل شهر.

وفي عام (٣١١ هـ= ٩٢٣ م) أسس الوزير ابن الفرات أيضاً مارستاناً ببغداد، وأنفق عليه من ماله مائتي دينار في كل شهر.

ولما استولى بجكم على بغداد أكرم سناناً وعظمه غاية التعظيم، فأشار سنان عليه أن يتخذ في عام (٣٢٩هـ =٩٤١م) مارستاناً ثالثاً، فوق ربوة جميلة على الشاطيء الغربي لدجلة، كانت تحمل قصر هارون الرشيد من قبل، وظل هذا المارستان زماناً طويلاً، حتى جدده عضد الدولة عام (٣٦٨هـ= ٩٧٨م)، وافتتحه عام (٣٧١هـ =٩٨١م)، وزوده بالأطباء والمعالجين والخزان والبوابين والوكلاء والناطورين.

وكذلك أسس معز الدولة في عام (٣٥٥ هـ= ٩٦٦م) مارستاناً آخر عند الجسر الذي على دجلة، ووقف عليه أوقافاً وضياعاً يرتفع منها خمسة آلاف دينار.

هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى في الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصة.

ويحكى أنه في عام (٣١٩هـ=٩٣١م) أتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط في معالجة رجل، فمات، فأمر محتسبه أبا بطيحة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنان بن ثابت، وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه صناعة من الطب، وأمر سناناً بامتحان الأطباء. وأحصى الأطباء في جانبي بغداد لامتحانهم، فكانوا ثمانمائة ونيفاً وستين رجلاً سوى من استغنى عن امتحانه، لاشتهاره بالتقدم في الصناعة، وسوى من كان في خدمة السلطان، وكان إذا جاء الرجل إلى سنان ليمتحنه بدأ بإجلاسه، ثم قال له: (قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً، أحفظه عنه، وأن يذكر شيخه في الصناعة).

ويحكى عن بجكم أنه بنى في واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين.

أحوال المعيشة

كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته في عصر الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة. وكانت الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار تعتبر ثروة غير قليلة.

ويحكى عن أحد أبناء العمال (الولاة) أنه أضاع ثروته على بعض المغنيات، ثم مات خادم كان مولى لأبيه وابن عم في يوم واحد، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمر داراً بألف دينار واشترى آلاتً وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعه آلاف دينار، وسلم لتاجر ألفي دينار يتجر له فيها، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع ضيعة تغل في كل سنه ما يزيد على مقدار نفقته.

الأبنية

وقد كشفت لنا حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري، فقد كانت الدور بسامراء تبنى على مثال واحد: يصل بينهما وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف، يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا، يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى، وفي أركانها غرف صغيرة، ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورات مربعة للسكنى وللمرافق المنزلية، وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلوا الدور قط من حمامات ومجارٍ تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار... وتشتمل أحياناً على صحون ذات أساطين (طارمات) وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية. والدور كلها من طابق واحد، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها أصحاب الدور مسطحات مرتفعة بمهارة لهم في ذلك. وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة، وبها شبابيك تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمترا.

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى في فصل الصيف، ولا تشير لذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع إلى ذلك العصر، ويرجع أصل هذه العادة ـ عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول في السراديب ـ إلى

بلاد آسيا الوسطى حيث يحكي لنا الرحالة وانج ين تي[١٥] في عام (٩٨١م) أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون في الصيف مساكن تحت الأرض.

أما في بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زرنج، أكبر مدن سجستان، ومدينة أرجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلهما في الصيف سراديب تحت الأرض يجري فيها الماء. وفي القرن الخامس الهجري يذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن من خصائص مدينة أرجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها، وأن الماء يجري تحت الأرض وفي السراديب، وفي أشهر الصيف يستروح الناس فيها.

ويذكر المقريزي بعد ذلك بقرون: إن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف الدخول في جوف الأرض، كما يعانيه أهل بغداد.

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش. وكانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف، فتكون قيلولة الملك فيه، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالاً، فتوضع حول البيت، ويؤتى بقطع الثلج الكبار، فتوضع ما بين أضعافها، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً.

ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد، فكانوا ينصبون الخيش الغليظ، ولا يزالون يبلونه بالماء، فيبرد الجو، وكان الخيش ينصب على قبة، ثم اتخذت بعدها الشرائح، فاتخذها الناس.

ويحكي المقدسي أنه رأى في دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبللها الماء على الدوام بواسطة قنى حولها من فوق، ويظهر أن هذه الطريقة في التبريد كانت شائعة جداً في بغداد.

وكان يستعمل في هذه البيوت الصيفية مروحة تشبه شراع السفينة، تعلق في سقف البيت ويشد بها حبل يديرها، وهي تبل بالماء وترش بماء الورد، فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها، فتذهب بطول البيت وتجيء ويهب منها نسيم بارد طيب.

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت.

وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لكبرها مدينة قائمة بذاتها، ويحكي الاصطخري أن قصور الخلافة وبساتينها تفترش مساحة كبيرة، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة.

---

[١٥] - Wang Yen te.

ويذكر الكتاب المتأخرون أنه كان هناك سراديب تصل القصور بعضها ببعض، فيحكي ناصر خسرو أن قصور الفاطميين كانت مؤلفة من بيوت كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض.

وقد رأى المقدسي قصر عضد الدولة بشيراز بعد موت هذا السلطان بقليل، وحكى رئيس الفراشين للمقدسي أن في القصر ثلاثمائة وستين حجرة، كان السلطان يجلس كل يوم في واحدة إلى الحول.

وقرب أواخر القرن الثالث الهجري نجد ضروباً من التفنن في إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر، وكأنما كان ذلك مؤذناً بابتداء التكلف والصناعة في الأدب، فكان في قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون، وكان في أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة، وعمل لخمارويه فرش من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة، وتشد زنانير الحرير في حلق الفضة بالأساطين، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية، فكان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب، إذا تألف نور القمر بنور الزئبق.

ولما أسس أمير الأندلس الناصر لدين الله الأموي مدينة الزهراء التي قال بعض المؤرخين إنه لم يبن في الإسلام أحسن منها، عمل فيها أيضاً بحيرة ملأها بالزئبق.

وقد أولع خمارويه فوق ما تقدم بالأزهار، وهذا الولوع من صفات الترك، فصار خمارويه بذلك كله أكبر منشئي البساتين بين أمراء الإسلام، ذلك أنه أقبل على بستان أبيه فزاد فيه، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه، فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال ثمره القائم، ومنه ما يتناوله الجالس، ومن أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستاني بالمقراض، حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوي العجيب، وأهدي إليه من خراسان كل أصل عجيب، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة،

وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتنحدر إلى مساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان، وبنى فيه برجاً من خشب الساج، فكانت هذه الفوارات والبرك والعيون المائية الصناعية ـ على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين ـ إلى جانب أبراج الخشب، مما يزيد البستان جمالاً.

ويحدثنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو أنه رأى بمصر ناساً يتجرون بالأشجار، وأن عندهم أشجاراً في أصص يضعونها على سطوح بيوتهم، حتى تصير السطوح كأنها حدائق، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حملت إليه ثم حفر لها في الأرض، ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شيء.

وكان في دار الشجرة من قصر المقتدر بالله شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصن شاخات كثيرة، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات لها، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك، كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار، فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه.

الحمام

أما الحمامات الساخنة فنجد في عناية المسلمين بها وتشييدهم الكثير منها، ويذكر الطبري، وهو من مؤرخي العرب المتقدمين، أن الفرس لم يكن لهم قبل الإسلام حمامات.

على أن المتشددين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب، ويحكى عن أبي بكر السلمي (المتوفى عام ٣١١هـ=٩٢٣م) أنه قيل له: لو حلقت شعرك في الحمام، فقال: لم يثبت عندي إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخل حماماً قط. ويحكى عن الزمخشري أنه قال: ويكره أن يعطي الرجل امرأته أجرة الحمام، لأنه يكون معيناً لها على المكروه.

وقد ذكر المسعودي أن الناس كانوا يصورون العنقاء في الحمامات، والعنقاء صورة لحيوان

خيالي عند الشرقيين وهي تمثل بطائر وجهه وجه إنسان، وله منقار نسر، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذواتا مخالب.

وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام وكان في جانبي بغداد في النصف الأول من القرن الرابع عشرة آلاف حمام وفي النصف الثاني كان بها خمسة آلاف فقط، وهذا العدد لم يزل في نقصان، حتى يذكر في القرن السادس أنه كان في بغداد ألفاً حمام.

وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل: حمامي، وقيم، وزبال . لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس . ووقاد، وسقاء.

الملابس

أمر أبو جعفر المنصور في عام (١٥٣هـ) بلبس القلانس الطوال، والدراريع مكتوب عليها بين كتفي الرجل: ﴿**فسيكفيكهم الله**﴾[١٦]، كما أمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم، فدخل عليه أبو دلامة، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التي أمر بها الخليفة، فقال له: كيف أصبحت يا أبا دلامة؟ قال: بشر قال المنصور: كيف؟ ويلك! قال: ما ظنك برجل، وجهه في نصفه، وسيفه في أسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره! فأمر المنصور بتغيير الزي، وقال أبو دلامة هذا، لما أمر المنصور بما أمر به:

وكنا نرجي من إمام زيادةً فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

ولما اتصل أهل أوربا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطوال، ومعها الخمر، وجعلوها لباس النساء في الغرب.

ولما جاء المستعين (٢٤٨- ٢٥٢هـ = ٨٦٢ - ٨٦٦م) صغر القلانس، بعد أن كانت طوالا كأقباع القضاة، وأحدث المستعين أيضاً لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تعهد من قبل، فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب، يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه، مثل الدنانير والكتب، وكان المهندس يضع فيها ميله، والصيرفي يجعل فيها رقاعة، والخياط يجعل فيها الجلم والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة، والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها.

وكان البياض من لبس الرجال، وكان أيضاً لباس النساء المهجورات، أما غيرهن فيجتنبنه إلا أن يعملن منه سراويلات. ولا يلبسن الملون إلا إذا كان لونه طبيعياً، لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمتقينات.

وكان الأزرق في المشرق لبس الحداد، أما في الأندلس فكان البياض يلبس لذلك.

أما الجوارب فكان يلبسها الرجال والنساء على السواء.

---

[١٦] - سورة البقرة: ١٣٧.

وقد جرت العادة دهراً طويلاً بأن يلوي الغلمان والجواري شعر أصداغهم على صورة حرف (ن) أو على صورة العقرب.

ما يتعلق بالموت

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت من جديد فيما يتعلق بالمقابر، وهي بناء الكبراء لأنفسهم في حياتهم تراباً ليدفنوا فيها بعد مماتهم. وأول من فعل ذلك أم المقتدر، وهي أم ولد رومية، بنت لنفسها تربة بالرصافة، وكذلك بنى الخليفة الراضي (المتوفى عام ٣٢٩هـ = ٩٤٠م) تربة في مقابر قريش. وعمر الطائع بعد ذلك تربة لنفسه بالرصافة، وفي هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام، ثم رسخت أصولها، فقد نهي عن الصياح على الجنائز، ولكن النهي لم يثمر.

ففي سنة (٢٥٠ هـ= ٨٦٤م) كانت تشق الجيوب وتصبغ الوجوه بالسواد، وتقص الشعور بمصر، وقد منع العامل من ذلك وسجن النائحات. وكذلك حدث في عام (٢٩٤هـ=٩٠٧م).

ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله، فحظر عام (٣٩٤هـ) على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت.

ولما قتل الحجاج ونكبوا على يد الجنابي خرج نساء بغداد إلى الطرقات مسودات الوجوه، منشرات الشعور يصرخن ويلطمن.

وفي عام (٣٠٥هـ=٩١٧م) مات غريب خال المقتدر، فأمرت أم المقتدر بهدم القبة الخضراء التي كان قد بناها لنفسه ببغداد، وبتحطيم طياره ومركبه على نهر الدجلة.

وقد أوصى أبوالفضل الهمذاني إذا جاءه الحق وتوفاه الموت، ألا تعقد عليه مناحة ولا يلطم خد، ولا يخمش وجه، ولا ينشر شعر، ولا يمزق ثوب، ولا يشق جيب، ولا يهال نقع، ولا يرفع صوت، ولا يدعى ويل، ولا يسود باب، ولا يحرق متاع، ولا يقلع غرس، ولا يهدم بناء، وأن يكفن في ثلاثة أبواب بيض لا سرف فيها؛ وحرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مطرز أو معلم أو إبريسيم أو منسوج بذهب.

وكان يعمل في تغسيل الكبراء وتكفينهم من الترف والسرف ما هو غريب عن الإسلام، فيحكى أنه لما مات الأمير سيف الدولة بن حمدان (عام ٣٥٦هـ= ٩٦٧م) غسل تسع مرات، أولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد، وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر، ونشف بعد غسله بدبيقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل، وهو قاضي الكوفة، إلى جانب أجرته، ثم دهن بالزعفران و الكافور ووضع على خديه ورقبته مائة مثقال من الغالية، وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور وبلغ ثمن كفنه ألف دينار، ثم وضع في تابوته ورش عليه الكافور.

وفي عام (٣٧٥ هـ = ٩٨٥م) مات تميم بن المعز فكفن في ستين ثوباً، وقيل إن ابن كلس لما توفي عام (٣٨٠هـ =٩٩٠م) كفن وحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار.

الأكل والشرب

ويحكى أن الأفشين كان حظياً عند المعتصم، فكان أول غضبه عليه أنه أكل عنده يوماً، ثم دعا بالطست، فغسل يديه بحيث يراه المعتصم، فقال المعتصم: هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست، حيث أراه!.

وكان الشراب منتشراً رغم نهي القرآن عنه، ولكن مسألة الشراب كانت تختلف باختلاف البلاد، فبينما كان يعاقب عليه في الحجاز . حتى يحكى أنه في عام (١٦٩هـ=٦٥٨م) قبض عمر بن عبد العزيز على أحد المحترمين مع آخرين على شراب، فأمر بضربهم جميعاً، وبأن تجعل في أعناقهم الحبال، ويطاف بهم في المدينة .كان أهل العراق لا يرون بالشراب بأساً. وانتشرت دور الخمر هناك، كما كان عليه الحال قبل الإسلام، وكان الخمار والساقون والساقيات في الغالب نصارى.

وكذلك كان حال الشراب في مصر، فيحكي المقدسي أن المشايخ فيها لا يتورعون عن شرب الخمور، حتى ترى الشيخ منهم سكران وذهبت كل أوامر رجال الشرطة سدى.

ويحكى عن نساء مراكش، وهي بلاد كثيرة الأعناب، أنهن كن مولعات بالشراب، ويحدثنا أحد الرحالين المحدثين أنه في أول جني العنب يكون الكثير من أهل مراكش سكارى.

ويحكى عن الأزهري اللغوي المشهور أنه ذهب إلى ابن دريد العلامة البصري (المتوفى عام ٣٢١هـ = ٩٣٣م)، وقد جاوز التسعين، فوجده سكران، فلم يعد إليه بعدها أبداً، وكان زواره يدخلون عليه، فيستحيون مما يرونه من العيدان المعلقة والشراب وهو في تلك السن العالية.

وفي عام (٣٢١هـ) أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر، (وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ، ولا يكاد يصحو من السكر).

ويذكر عن الخليفة الراضي الذي جاء بعد القاهر أنه كان أعطى الله عهداً ألا يشرب، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظاً على عهده لا يشرب، وكان جلساؤه يشربون بين يديه، فلا يشرب معهم إلا الجلاب، ولكن أصحابه لم يزالوا به، ليشرب، فكتب رقعة بلفظ يمينه، وعرضها على الفقهاء، فوجدوا له رخصة، كالعادة، فأعطى أستاذه ونديمه الصولي ألف دينار ليتصدق بها عنه، وشرب.

وكان الخليفة المستكفي قد ترك النبيذ، فلما أفضت إليه الخلافة عام (٣٣٣هـ=٩٤٤م) دعا به من وقته، وعاد إلى شربه.

وكان في بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابي، شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح.

وكان الشراب عادة للكثيرين، حتى كبار ذوي المناصب الشرعية، فيحكى أنه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين، على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، منهم ثلاثة قضاة هم ابن قريعة وابن معروف والتنوخي، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، فإذا تكامل الأنس، وطاب المجلس، ولذ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه، وضع في يد كل منهم كأس ذهب، وزنه ألف مثقال، مملوء شراباً قطربليا أو عكبريا، فيغمس لحيته فيه، بل ينقعها فيه نقعاً، حتى تتشرب أكثره، ويرش منه بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات ومخانق البرم، فإذا أصبحوا عادوا عادتهم من التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء.

وكان يحضر إلى مجلس الشراب في منزل كاتب للخليفة قاض من قضاة بغداد، (توفي عام ٤٢٣هـ=١٠٣١م)، وكان لا يشرب إلا قارصاً، فأرسل صاحب المنزل غلاماً، وأحضر

خماسية من دكان إسحاق الواسطي، فيها من الشراب الذي كان بأيديهم، إلا أن على رأسها كاغداً وختماً مكتوب عليه (قارص من دكان إسحاق الواسطي)، فشرب القاضي منه، ثم سأل عن الشراب فقيل له: قارص، فقال: لا بل والله الخالص، ثم ثنى وثلث، فكان الغلام، كلما أتاه القدح سأله عنه فيقول تارة مدام، وتارة خندريس، فإذا قال له: خمر، حرد واستخف به، فلم يشرب القاضي إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر، حتى تبطح في المجلس ولف في طيلسانه وحمل إلى داره.

الغناء والرقص

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص، وكانت آلات الموسيقي في أغلب الأحيان أربعاً: الجنك والعود والقانون والمزمار، وكان الجواري يغنين من وراء ستار، ولكن كان من المبالغة في إكرام الضيف أن تغني المغنيات بين يدي الستار.

وكان التأثر بالغناء قوياً، فكان منه ما يسر وما يبكي، وما يزيل العقل، حتى يغشى على صاحبه. ويذكر أنه لم يكن أحسن صوتاً من مخارق، غنى يوماً في متنزهٍ، وقد سنحت ظباء، فجاءت إعجاباً بغنائه، وتوسط دجلة يوماً وغنى، فلم يبق أحد إلا بكى، وكان غناؤه أحياناً يسر من جماله كل قلب.

وغنى الأمير إبراهيم بن المهدي مرة في مجلس المأمون، فأحسن، وكان في المجلس كتاب من كاتب طاهر بن الحسين يكنى أبا زيد، وكان قد بعثه في بعض أموره، فطرب أبو زيد، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم، فقبله، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل، فقال له أبو زيد: ما تنظر! أقبله والله! ولو قتلت؛ فتبسم المأمون.

وفي أواسط القرن الثالث الهجري نزل عبيد الله بن طاهر عند المعتز، فأراه أشياء عجيبة، منها أنه أسمعه غناء سارية وزمر رنام الزامر. ثم أراه آلة موسيقى عجيبة، وأدخله إلى شباك، وأمر أن يجمع بين السبع والفيل، فرأى تواثبهما، ثم سأله أي الأشياء أطرف فيما رأى، فقال، غناء سارية.

أما الأرواح المتميزة بشدة الالتهاب، فكان أحدهم يمزق ثيابه، ويدق الحائط برأسه،

ومنهم من كان يتمرغ في التراب، ويهيج ويزبد ويعض بنانه، ويركل برجله، ويلطم وجهه.

عادات أخر

وكان شرب النبيذ مقللاً لانتشار المخدرات الأخرى، فالكلام في تناول الحشيش لم يظهر في مؤلفات الفقهاء إلا في القرن الثالث الهجري، وقد حرمه الشافعية وأباحه الحنيفة، ولا نجد له ذكراً في الحكايات المأثورة من القرن الرابع. ويدل تاريخ الحشاشين على أن تناول الحشيش كان يعتبر شيئاً جديداً كل الجدة عند العامة.

أما الشاي الصيني فلم يكن قد استعمل للشراب في ذلك العصر، وإن كان أحد الرحالين قد حكى في وصفه للصين في كتاب كتبه حوالي عام (٢٣٧هـ=٨٥١م) أن الشاي كانت تدفع عليه المكوس كغيره من الأشياء.

ولا نجد أن التدخين بأي نوع من أنواعه كان من أنواع اللذات، ولكن كان الطين يمضغ. ويحكي المسعودي في أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان يأتي من الهند ورق النابتول ليمضغ، وأنه في ذلك العصرِ غلب مضغه على أهلِ مكة وغيرهِم من الحجاز واليمن بدلاً من الطينِ.

وقد حكى التنوخي (المتوفى ٣٨٤هـ=٩٩٤م) حكاية جماعة من الكتاب في القرن الرابع كانوا قاصدين مصر للتصرف، فلما وصلوا دمشق أقبلوا يخترقون الطرق حتى أضافهم بعض الكبار. ثم أخذوا إلى مجلس في بستان حسن، وأحضرت الأنبذة الطيبة، فشربوا أقداحاً يسيرة، ثم ضرب صاحب الدار بيد على ستارة ممدودة، وإذا جوارٍ خلفها، فأمرهن بالغناء فغنين أحسن غناء، فلما توسطوا الشراب قال صاحب الدار للجواري: ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله! أخرجن! وهتك الستارة، فخرج عليهم جوارٍ لم ير قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن، ما بين عوادة وطنبورية وزامرة وصناجة ورقاصة ودفافة، بفاخر الثياب والحلى، وأحطن بالضيوف، فاشتد محبتهم لهن، ولكنهم ضبطوا أنفسهم، فلما كادوا أن يسكروا، ومضى بعض الليل أقبل عليهم صاحب الدار وقال: يا سادة! إن تمام الضيافة وحقها الوفاء بشرطها، وأن يقوم المضيف بحق الضيف في جميع ما يحتاج إليه من طعام وشراب وجماع، وقد أنفذت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبروني بعفافكم عنهم، فقلت: هم أصحاب نساء، فأخرجت هؤلاء، فرأيت من إنقباضكم عن ممازحتهن ما لو خلوتم بهن

كانت الصورة واحدة، فما هذا؟ فقالوا: يا سيدي أحللناك عن تبذل ما في دارك، وفينا من لا يستحل الحرام، فقال: هؤلاء مماليكي، وهن أحرار لوجه الله تعالى، وإن كان لابد من أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة ويتمتع بها ليلة، فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر، لأكون قد قضيت حق الضيافة، فلما سمعوا ذلك، وقد انتشوا طرباً أخذ كل واحد منهم بيد واحدة، وأجلسها إلى جانبه، وأقبل يقبلها ويقرصها ويمازحها، فمنهم من تزوج، ومنهم من لم يفعل، وجلس معهم ساعة ثم نهض، فإذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبته إلى بيت في نهاية الحسن مفروش بفاخر الفرش، وتركوا معهما ما يحتاجان إليه، فباتا في أرغد عيش، فلما جاء الصباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمام، فدخلوه ودخل معهم المردان، فمنهم من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس، وخرجوا، فبخروا بالند، وأعطوا الماورد والمسك والكافور، وكذلك كان حال غلمان الضيوف كحال سادتهم، ذلك أنهم قدمت إليهم الجواري الروميات، فوطؤوهن.

القمار

وكان الفقهاء في البداية لا يجيزون لعب الشطرنج، ثم تساهلوا[١٧] في أمره، ويذكر أن من رشيق فتاوى سهل بن سهل مفتي نيسابور (المتوفى عام ٤٠٤هـ =١١٠٣م) في الشطرنج: (إذا سلم المال من الخسران، والصلاة عن النسيان، فذلك أنس بين الخلان).

ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوجون لاعب الشطرنج.

ويحكى عن الخليفة المأمون، بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة، أنه اشتهى الشطرنج، فاستحضر كبار أهله، فكانوا يتوقرون بين يديه، حتى ضاق بذلك، وقال: إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذا خلوتم.

أما النرد فقد ظل أهل الورع ساخطين عليه، ويسميه أبو الليث السمرقندي: (عمل الشيطان).

[١٧] – أي فقهاء العامة، أما الشيعة فلم يجوزوه.

المسابقة

ويحكى عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه سابق بين الخيل. ويروى عنه (صلى الله عليه وآله) في روايات كثيرة أنه قال: (لا تحضر الملائكة من اللهو شيئاً إلا ثلاثة: لهو الرجل مع امرأته، وإجراء الخيل، والنصال) غير أن الفقهاء اشترطوا في هذه الرياضة التي أباحوها، وهي مسابقة الخيل، ألا تلعب طلباً للمال، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم له أن السابق كان يأخذ حصان السبوق.

وكان الناس مولعين بسباق الحمام، رغم إنكار الفقهاء له، وكان منتشراً في مصر، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري.

وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والديوك والكلاب.

وكان القمار أكثر ما يلعب بفصي النرد، وقد شغف الناس بذلك رغم تحريم القرآن للقمار، بل يحكم من أخبار عصر النبي (صلى الله عليه وآله) أن أبا لهب قامر العاصي بن هشام، فقمره، حتى أخرجه من ماله، ثم عرض عليه العاصي أن يقامره، فأيهما قمر كان عبداً لصاحبه.

وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التي يقوم بها المحتسب، وقد حكى ابن سعيد، أن الأخشيد في وقت من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم، فأخذوا.

الرياضة

أما الديلم فكانوا شعباً جبلياً، فآثروا الرياضة البدنية البسيطة، فيحكى أن معز الدولة لما جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والمروي ونحوهما، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم، ويقف على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور، وعلى الباب أصحاب الدبادب، ثم يؤذن للعامة في دخول الميدان، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم، ثم دخل في ذلك أحداث بغداد، حتى صار بكل موضع صراع، وشغف شبان معز الدولة بالسباحة، فتعاطاها أهل بغداد، حتى أحدثوا فيها الطرائف.

الصيد

على أنه بالرغم من كل هذه الرياضات بقي الصيد محتفظاً بكلِ ماله من شأن، بل ظهرت في تمجيده قصائد خاصة، إلا أن معظمها يدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها، وكان أشهر الوحوش الضارية هو الأسد، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام، ولا على شواطئ نهري الدجلة والفرات، بل كانت أحياناً تدنو قريباً جداً من بغداد.

وكان بقصر الخليفة بسامرا على عهد المعتصم مكان يحفظ به الحيوان، وهو يسمى "حير الوحش".

ولكن حب الاطلاع على غرائب الحيوان زاد حتى صار اهتماماً كبيراً به، فيحكى عن خمارويه بن أحمد بن طولون أنه بنى في داره الكبيرة موضعاً للسباع، وعمل فيه بيوتاً، كل بيت لسبع لا يسع غير السبع ولبؤته.

وكان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي (عام ٣٠٠هـ = ٩١٢م) دار بها قطعان من أصناف الوحش، وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلاد.

وكان جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن خنزابة (المتوفى عام ٣٩١هـ) يهوى النظر إلى الأفاعي والحيات والعقارب وما يجري مجراها من الحشرات، وكان في داره

قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات، ولها قيّم فراش حاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون، وكان كل حاوٍ في مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر له عليه، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا في تحصيلها، وذات يوم أنساب إلى دار ابن المدبر الكاتب . وكان يسكن إلى جوار الوزير . الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة، فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بصون ما يوجد منها، إلى أن ينفذ الحواة لأخذها.

التقليد

وكان ثم مقلدون بالمعنى الصحيح أيضاً، وكان الواحد يسمى الحاكية، وكان التقليد والمحاكاة يعتبران فنين جديرين بالعناية، فكان ببغداد رجل عرف بابن المغازلي، يقف على الطريق ويقص على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة، وكان في نهاية الحذق، يقلد كل طوائف الناس، فلا يدع حكاية أعرابي أو نجدي أونبطي أو زطي أو زنجي أو سندي أو تركي أو خادم إلا حكاها، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول.

وقد نجد أحياناً ذكر ما يسمى بالسماجات، وهي تذكر في مصر في بعض الأعياد، وفي بغداد في يوم النيروز، حيث كان أصحاب السماجات يلعبون بين يدي الخليفة، وكل منهم متنكر بصورة منكرة.

أحوال المدن

لا نعرف عن القرن الرابع إلا تصنيفاً واحداً للمدن، وهو يقوم على اعتبار أساس سياسي، ويفرق بين المدن على هذا النحو:

الأمصار، وهي البلاد التي يحلها السلطان، وتجتمع فيها الدواوين، وتقلد منها الأعمال وتضاف إليها مدن الأقاليم.

القصبات، وهي عواصم الأقاليم، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك.

المدن أو المدائن، وهي ما يلي القصبة في الأقاليم، ومقامها مقام الجند.

النواحي، مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر.

القرى، وهي الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجالة.

المساجد

وكان ببغداد حوالي (عام ٣٠٠هـ) نحو من سبعة وعشرين ألف مسجد. ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام إلا في المسجد الجامع في كل من جانبي بغداد، وفي مسجد دار الخلافة.

وكان بالفسطاط أيضاً مسجدان للجمعة.

أما البصرة فكان فيها في القرن الثالث الهجري سبعة آلاف مسجد، وكان بها في القرن الرابع ثلاثة جوامع.

وفي القرن السادس الهجري وجد ابن جبير أن المساجد التي يجمع فيها ببغداد أحدَ عشرَ مسجداً.

ولم يكن في الدواوين سجلات إحصائية للناس سوى التي كان يحصى فيها من يلزمهم دفع الجزية.

وقد عني جغرافيو القرنين الثالث والرابع بذكر كثير من الأرقام، مثل أعداد الأبواب في المدن وأعداد المساجد والحمامات ونحوها، ولكنهم لم يهتموا قط بذكر عدد السكان.

وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغدادي أن يقدر عدد سكان بغداد في القرن الثالث مستدلاً بما ذكر له من عدد الحمامات، فقد ذكر له أنه كان ببغداد ستون ألف حمام، فقدر أن بإزاء كل حمام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمائة ألف مسجد، وأقل ما يكون في المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان.

وأوضح من ذلك كله ما قيل في قرطبة حوالي عام ٣٥٠ هـ من أن عدد الدور التي بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، وأن مساجدها ثلاثة آلاف.

هندسة المدن

وتختص المدن العربية بتقارب المباني وارتفاع الدور.

وكان بالفسطاط دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان، حتى كأنها المنائر، وأسفل الدور غير مسكون، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس، بل يقول ناصر خسرو وترى مصر من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات... وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها.

وقد ظهر منذ منتصف القرن الهجري طراز آخر من المدن، وذلك أن الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدناً خاصة يتخذونها مقراً لهم، مثل مدينة سامرا والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد، ورقادة التي اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان، والقطائع التي اتخذها الطولونيون إلى جوار مصر.

وفي القرن الرابع الهجري بنيت المدن التي اتخذها خلفاء الفواطم مقراً لهم، مثل المهدية والمنصورية والمحمدية والقاهرة، فكانت أعظم ما أسس من المدن نجاحاً في القرن الرابع، بل في تاريخ الإسلام.

أما في الأندلس فقد بنى عبد الرحمن بن محمد في غرب قرطبة مدينة سماها الزهراء، وخط فيها الأسواق والقصور والحمامات، وأمر مناديه بالنداء: ألا من أراد أن يبتني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم، فتسابق الناس إلى العمارة وتكاتفت الأبنية حتى كادت تتصل بين قرطبةِ والزهراء.

وكذلك ابتنى السلطان عضد الدولة (المتوفى عام ٣٧٢هـ) مدينة فناخسرو (وهو اسم عضد الدولة)، اختطها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز، وشق إليها نهراً كبيراً، أجراه من مرحلةٍ، وجعل إلى جنبيه بستاناً سعته فرسخ، ونقل إليها الصوافين وصناع الخز، واتخذ بها القواد دوراً حسنة وعقاراتٍ جليلةٍ، وجعل لها عيداً في كل سنة.

وكانت هذه المدن الجديدة تمتاز بالإتساع، حتى نجد اليعقوبي في كلامه عن سامرا لا يمل وصف إتساعها، فيقول: إن المتوكل جعل عرض الشارع الأعظم فيها مائتي ذراع، وقدر أن يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير.

وكانت القاهرة في أول وضعها مدينة حدائق، فيذكر ناصر خسرو أن كل الدور منفصل بعضها عن بعض، حتى أن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى.

المياه

وقد نالت مياه الشرب في المملكة الإسلامية عناية كبيرة.

ويحكي ناصر خسرو في عام ٤٤٠ أنه كان بمصر والقاهرة اثنتان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين.

وفي سنة (٣٨٢هـ) نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء، لئلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب الناس.

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة، وكان السقاؤون يأخذونه إما من النهر مباشرة ويحملونه إلى دور أهل اليسار، أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة، بل كان هناك قناتان يجري فيهما الماء إلى المدينة، وكلاهما مغطاة ومحكمة العقد، وإحداهما القناة التي كانت تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات.

وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في سمرقند أعظم مما تقدم، فيحكي لنا ابن حوقل: (وقل ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل، وذكر لي من يرجع إلى خبره أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان، يسقى فيه ماء الجمد مسبلاً، عليه الوقوف، من بين سقاية مبنية وجبات نحاس منصوبة وقلال خزف في الحيطان مبنية).

أما مجاري الماء المبنية تحت الأرض فكانت توجد في مدن إيران الشمالية بنوع خاص مثل قم ونيسابور، وكانت نيسابور أكبر مدن المشرق في ذلك العصر. ويحكي ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجاري الماء المغطاة، بعضها يظهر في خارج المدينة ويروي البساتين، وبعضها الآخر يمد الدور بالماء، وكانت هذه المجاري على أعماق متفاوتة تفاوتاً كبيراً، حتى يضطر الإنسان أن ينزل إليها مائة درجة، وكان على هذه المجاري والأودية قوام وحفظة.

وكانت مدينة الدينور مدينة جبلية تتفجر عيوناً ولم ير أنظف من مائها، وقد بلغ من رقي أهلها أنهم جعلوا على أفواه العيون مزملات وأنطونيات يخرج منها الماء.

الافرازات الانسانية

أما مسألة تصريف الإفرازات الإنسانية، وهي من المسائل العسيرة فيظهر أنها كانت تحل في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها حلا من طريق المضاربة، وكان بالبصرة تجار لهذه المهمة.

وكان اكتراء الحمير منذ القرن الثالث الهجري وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن، ويقول ناصر خسرو عام ٤٤٠هـ إنه كان بمصر خمسون ألف حمار للكراء (ص ٥٣ من الرحلة).

أما في المدن التي تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً. وقد أحصيت السميريات المعبرانيات بدجلة في أيام الخليفة الموفق (من سنة ٢٥٦هـ= ٢٧٩هـ) فكانت ثمانينَ ألفاً.

ادارة المدينة

أما إدارة المدينة فكان الحظ الأوفر منها في يد عمال الدولة، وكان من هؤلاء العمال في كل بلد من خراسان مثلاً أربعة وهم: القاضي، وصاحب البريد، والبندار، وصاحب المعونة.

وكان إلى جانب التنظيم الرسمي تنظيم خاص، فمثلاً لما أسست بغداد قسمت الأرباض إلى أرباع، وقلد كل ربع لرجل من الحاشية ليديره، وكان في كل ربض . زيادة على ذلك . رئيس وقائد، خصوصاً بفارس.

وكان الذي يعنى بالأمن في مقر الأمير أو الوالي صاحب الشرطة، أما في المدن الأخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة، وكان يقوم إلى جانبها المحتسب، وكان المحتسب حوالي (عام ٣٠٠هـ) موظفاً معيناً، له منصب ثابت.

وكان المحتسبون يختارون في الغالب من بين القضاة، ففي سنة (٣١٩هـ) خلع على محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة، فعظم ذلك على مؤنس، وسأل المقتدر صرف محمد بن ياقوت عن الحسبة، وقال: هذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول.

وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين، وهي عبارة عن سكين

طويل، يحملونها معلقة في أوساطهم وكل من هرب أمامهم كان لابد أن يؤويه الناس، وكانوا يقومون بالطوف أو العسس طول الليل إلى صلاة الفجر.

ولم يكن في القرن الثاني الهجري بالمشرق نظام لضبط أسماء الأغراب قبل دخولهم من أبواب المدن. وقد تكلم أحد الرحالين المسلمين في القرن الثالث الهجري عن نظام جواز المرور المعروف بالصين كلام من يعتبر ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به.

الأعياد

تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الإسلامي الذي يحيط بالحياة العامة.

وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة، وقاعات شرابها الباردة، مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين، وكثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام الشعراء.

وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرون في قصر الخلافة ببغداد، متزينات في ثياب جميلة غالية، وفي أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون.

وفي القرن الرابع الهجري كان رسم النصارى ببيت المقدس في هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعازرية إلى كنيسة القيامة، وبينهما مسافة بعيدة، ويشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات، حاملين الصليب مشهوراً، ويركب والي البلد في جميع موكبه معهم ويذب عنهم.

وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو، إلى شرقي بغداد، بباب الشماسية على نهر المهدي، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره، وهناك يدور الشراب.

وفي ليلة عيد الميلاد (٢٥ديسمبر) وعيد الشمس كان يحتفل بها بإيقاد النيران، وقد تكلم ابن بابويه القمي الشيعي الفارسي (المتوفى عام ٣٨١هـ=٩٩١م) عن العلة التي من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز، وروي عن وهب بن منبه أنه لما ألجأ المخاض مريم ﷺ إلى جذع النخلة اشتد عليها البرد، فعمد يوسف النجار إلى حطب، فجعله حولها كالحظيرة، ثم أشعل فيها النار، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية، حتى دفئت، وكسر

لها سبع جوزات وجدهن في خرجه فأطعمها، ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد، ويلعبون بالجوز.

ولكن المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود التي تعرف بالسدق والتي تكون بحسب قانون مسعود لعشرة تمضي من بهمن ماه، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا في ليلة عيد الميلاد.

ويحكي ابن الجوزي في عام (٤٢٩هـ =١٠٣٨م) عن قوم من أهل عكبرا أنهم اجتمعوا في ليلة عيد الميلاد لإشعال النار على عادتهم.

وصار في رسوم الملوك في ليلة إيقاد النيران وتأجيجها، وإرسال الوحوش فيها، وتطيير الطيور في لهبها، والشرب، والتلهي حولها، ويقول البيروني بعد حكايته لذلك: (انتقم الله من كل متلذذ بإيلام غيره من الحاسين غير المضرين).

وفي أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية، وقربات الجلاب، وطيافير الزلابية، وماء الورد، والسمك البوري، وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس، ويعطى للفقراء فوانيس، يحملونها في أيديهم، ولهم على ذلك درهم.

وكانت العادة أن يضاء سوق الشماعين بإضاءة كبيرة، وكانت حوانيته لا تزال مفتحة إلى نصف الليل، يقصده كثير من الناس، وكان يجلس فيه في الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين، لهن سيما يعرفن بها، وهي نبس الملاآت الطرح، وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر، وكان يعانين الدعارة.

وكان عيد الأحد من الصوم المسيحي عيداً من أعياد اللهو عند المسلمين، وكان يعمل في دير الخوات بعكبرا المشهورة بنبيذها، ويبلغ اللهو أقصاه في ليلة الماشوش، وهي ليلة تختلط النساء فيها بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء، وهو معادن الشراب، ومنازل القصف، ومواطن اللهو.

وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد سرعان ما اتخذه المسلمون، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم.

وكان للناس عند خليج الخور مجتمع، يكثر فيه لهوهم ولعبهم.

وفي سنة (٤١٥هـ) كان ثالث الفتح، فاجتمع عند كنيسة المقس خلق كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره.

وكانت أعياد رأس السنة ثلاثة:

١ ـ عيد رأس السنة الفارسية والشامية، وهو أول الربيع.

٢ ـ عيد رأس السنة القبطية بمصر، وهو في آخر أغسطس.

٣ ـ عيد رأس السنة الهجرية، وهو متنقل في أثناء السنة الميلادية.

وكانت العادة عامة في الاحتفال بعيد النيروز ـ وهو مبدأ السنة الشمسية ـ بتبادل الهدايا، فكان الخليفة في بغداد يفرق على الناس أشياء، منها صور مصنوعة من عنبر، منها ورد أحمر مثلاً. وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية. وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام. وفي هذا اليوم كان أصحاب السماجات يظهرون بين يدي الخليفة، فينثر عليهم الدراهم، وكانوا يقتربون منه للقطها، حتى يحكى أنه دخل إسحاق على المتوكل في يوم نوروز، وأصحاب السماجات بين يديه، وقد قربوا منه، حتى جذبوا رداءه، فغضب إسحاق وخرج، فأمر المتوكل برده.

وكانت العادة في رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء، وقد منع ذلك في المشرق (عام ٢٨٢هـ=٨٩٥م). على أن البيروني يتكلم عن الرش ووجوده عام (٤٠٠هـ). ويحكي لنا الرحالة الصيني وانج ين تي [١٨] الذي طاف بالمشرق بين عامي (٩٨١م و ٩٨٣م) عن أهل مدينة طرفان (كانتشانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس، ويملئونها بالماء، ويرش بعضهم بعضاً، وقد يمزحون أحياناً فيرشون الماء بأيديهم، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج، ويدفعون الأمراض.

وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً عيد المهرجان، وكان يعتبر أول أيام الشتاء، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد، وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون في النيروز، وكان القواد ورجال دار الخلافة تخلع عليهم فيه ملابس الشتاء، وكان العامة يغيرون

---

١٨ - (WaNg _ Yan _ te).

فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان.

أما رأس السنة الهجرية فإنه لما كان متنقلاً دائماً ليسَ له موعد ثابت، لم يصر عيداً من الأعياد الشعبية، بل ظل عيداً في قصر الخلافة، لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة، وكان الناس يتهادون فيه أيضاً.

وكان من العادات بقصور العباسيين نثر الزهور، وهي عادة أصلها يرجع إلى الأعياد الطبيعية، ويحكى عن الخليفة المتوكل وكان محباً للأبهة، أنه أمر أن تضرب لذلك خمسة آلاف درهم، وتلون بالحمرة والصفرة والسواد وغيرها، لتنثر على أصحاب الرتب بقصر الخلافة. وكان يصنع للخليفة بمصر قصر من الورد بقرية من قرى قليوب، وكان بها جنان وورود كثيرة، وكان الخليفة يخرج في يوم يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزهاً، ويخدم هناك بضيافة عظيمة.

أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر، وكانا إلى جانب النيروز الفارسي أكبر الأعياد عند أهل بغداد، وكان أهل البصرة يسمنون الأضاحي سنة وأكثر، ثم تباع لعيد النحر، الواحدة منها بعشرة دنانير.

ويحكى أنه في آخر يوم من رمضان سنة (٣٠٨هـ) حمل يأنس الصقلبي صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى، وحمل أيضاً علي بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها في شوارع القاهرة.

وكانت تعمل أسمطة أخرى في القصر يحضرها الخليفة بنفسه في يوم عيد الفطر وعيد النحر، ففي عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع في سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند، فإذا صلى الخليفة الفجر جلس، ومكن الناس من ذلك السماط (مائدة طويلة) الممدود، فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه.

وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالاً رسمياً، وكانا لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون الشعور الإسلامي فيها على أقواه، مثل طرطوس، حيث كان يأتي غزاة المسلمين من كل أنحاء المملكة الإسلامية، حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام، ولما ضاعت من المسلمين

طرطوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها، وكان يذبح في عيد النحر حيوانات كثيرة.

وكان شهر رمضان هو الشهر الذي يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين، ويحكى عن الوزير ابن عباد أن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفطر فيها، وأن صدقاته وقرباته في هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة.

وكان ازدياد التعظيم للنبي (صلى الله عليه وآله) بين أهل الصلاح والورع سبباً في أن صار يحتفل بمولده حوالي عام (٣٠٠هـ)، ويحكى عن الكرجي (المتوفى عام ٣٤٣هـ=٩٥٤م)، وكان من الزهاد المتعبدين، أنه كان لا يفطر إلا في العيدين وفي يوم مولد النبي (صلى الله عليه وآله).

وفي القرن السادس الهجري أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أمر الموالد الأربعة، النبوي والعلوي والفاطمي ومولد الإمام الحاضر.

وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان.

وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً، ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه في سنة (٣٣٢هـ) ختن خمسة من أولاده، وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام، ونثر في هذا الختان خمسة آلاف دينار عيناً ومائة ألف درهم ورقاً، وفرقت فيه دراهم وكسوة، ويقال إنه بلغت النفقة فيه ستمائة ألف دينار.

وحكى أبو جعفر الجزار عن عام (٣٤٠هـ= ٩٥١م) أنه في هذه السنة أمر إسماعيل بن القائم (الفاطمي) أن يكتب له أولاد القواد ووجوه رجاله من كتامه، والعبيد والجند وضعفاء الناس من أهل القيروان وغيرها، ليختنوا ويحسن إليهم بالكسى والصلات، فبلغوا أكثر من عشرة آلاف، فابتدأ في ختانهم، وعمل ولائم، وأطعم خاصة الناس وعامتهم، وأعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل من ذلك، فكان يختن في كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة، فأقام على هذا سبعة عشر يوماً، قال أبو جعفر الجزار: فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنه أحصى ما أنفق في هذا الختان، فكان مائتي ألف دينار.

وكان أكبر عيد بقصر الخلافة في القرن الثالث الهجري عيد ختان عبد الله المعتز بن

المتوكل، ويقال إن المتوكل أنفق في ذلك ستة وثمانين ألف ألف درهم، وهو مقدار يشبه ما يقال في القصص الخيالية، ولكن مصرف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد، الذي بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ، بعد حكم قصير، وأن يقضي ابنه آخر أيام حياته في فقر وآلام، وأن يكون أميراً مغضوباً عليه.

وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل، إلى جانب حفلات الختان، فيقال إن نفقات زفاف هارون الرشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم، وإن نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم.

الأشجار

وكانت أشجار العنب أكبر ما تكون في اليمن، ويحكى أن بعض عمال الرشيد حمل إليه، وهو يؤدي فريضة الحج مرة، عنقودين من العنب في محملين على بعير، وربما كان يحمل من جبال أرمينية وأذربيجان أخونة عظيمة جداً يكون دور بعضها عشرين شبراً من خشب الكرمة.

اللئالي

وكان اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج الفارسي في شرق جزيرة العرب يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين. وكان الغواصون يغوصون عليه في بحر فارس من أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها.

وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النظام الرأسمالي، فكان أحد المقاولين يؤجر الغواصين شهرين، ويدفع لهم أجرهم بانتظام، وكان يحصل من وراء غوصهم في بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شيء. وفي عصر بنيامين التوديلي (حوالي عام ١١٧٠م) كان هذا العمل يقوم به أحد اليهود، أما في أيامنا فإن الربح يعود على القبيلة أو القبائل التي تملك القوارب المستعملة في مساعدة الغواصين. والقسمة بين القوارب على السوية، أما ربح ذلك فهو يؤول إلى تجار الهند الذين يشترون أصنافه بأبخس الأثمان. وكانت مهمة الغوص شاقة جداً وقد وصف الأعشى الشاعر الجاهلي هذا الغواص وصفاً بين فيه

ضعف حاله والخطر يتجشمه، وأنه ينزل في البحر الذي ربما قد مات فيه أبوه من قبل، وهو مع ذلك لا يجد من المبتاعين رفقاً.

وفي أوائل القرن الرابع الهجري يحدثنا المسعودي أن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحم إلا السمك، ويأكلون الثمر ونحوه من الأقوات، وتشق أصول آذانهم ليخرج منها النفس بدلاً من المنخرين، لأنهم يجعلون على المنخرين شيئاً من ظهور السلاحف البحرية، التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن، يضمها كالمشقاص، لا من الخشب، ويجعل في آذانهم القطن، وفيه شيء من الدهن فيعصر من ذلك الدهن اليسير في قعر الماء، فيضيء لهم بذلك ضياء نيراً، وتطلى أقدامهم وسيقانهم بالسواد خوفاً من أن تبلعهم دواب البحر، لأنها تنفر من السواد، وهم في قعر البحر يصيحون كالكلاب، حتى يسمع بعضهم صياح بعض.

حدثنا كتاب القرن السادس الهجري عن اللؤلؤ والغوص عليه أحاديث مفصلة، وذلك أنه كان يخرج من المدينة أكثر من مائتي سفينة معاً تحمل كل منها خمسة تجار إلى ستة، كل منهم في مكان خاص به، ومعه غواصه ومساعدوه، ويقود هذا الأسطول قائد في مركب يسير به أمام الجميع، فيقف في مكان ما ويغوص، فإذا وجد شيئاً ألقى مراسي سفينته، وألقى الآخرون مراسي سفنهم حوله، ثم يسد الغواصون أنوفهم بالشمع المذاب في زيت السمسم، ويأخذ كل منهم سكيناً ومخلاة، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزله إلى قرار البحر، ويستمر هذا الغوص ساعتين من النهار. ثم يقاس هذا اللؤلؤ ويباع في يوم يحدد له بإشراف الحكومة، ويفرز اللؤلؤ بثلاثة غرابيل متفاوتة إتساع الخروق بعضها فوق بعض. ويقول بنيامين إن الغواص يستطيع أن يبقى تحت الماء من دقيقة إلى دقيقة ونصف.

وحكى كاتب صيني من أهل ذلك العصر فقال: يستعمل في استخراج اللؤلؤ ثلاثون أو أربعون قارباً، على كل منها نحو من اثني عشر بحاراً، ثم يأتي الغواصون وقد شدت الحبال على أجسامهم، وسدت أنوفهم وآذانهم بالشمع الأصفر، وينزلون البحر على عمق مائتين أو ثلاثمائة قدم أو أزيد من ذلك، وتكون الحبال مثبتة إلى القارب، فإذا أشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه إلى السطح، ويكون قد سخن له غطاء لين في الماء المغلي، فيلقى عليه بمجرد خروجه من الماء، لئلا تصيبه النوبات، فيموت. والغواصون عرضة لأن تهجم عليهم

الأسماك الكبيرة ووحوش البحر، فتمزق أجسامهم أو تكسر أعضاءهم، وفي كثير من الأحيان يحرك الغواص حبله، فيجذبه الرجل الذي على ظهر المركب فلا يستطيع، وعند ذلك يأتي البحارة جميعاً ويجذبونه بكل قوتهم، فيخرجونه وقد عض ساقه وحش من وحوش البحر. وتعتبر اللؤلؤ بالإجمال ذات قيمة إذا كانت مستديرة تمام الاستدارة، ودليل ذلك أن تظل متدحرجة نهاراً كاملاً على سطح مستو توضع عليه. ومن عادة التجار الأجانب الذين يقصدون الصين أن يخبئوا اللؤلؤ في بطائن ملابسهم أو مقابض مظلاتهم هرباً من دفع المكوس.

ويحكي لنا الرحالة الصيني جانج تي الذي سافر (١٢٥٩م) من الصين نحو الغرب، وهو رحال قد جمع معلومات جيدة عن استخراج اللؤلؤ ما يأتي: (يدخل الغاصة على اللؤلؤ في أكياس من الجلد بحيث لا تكون طليقة إلا أيديهم، وتربط الحبال حول أوساطهم، ثم ينزلونهم، وهم على هذه الحال إلى قعر البحر، فيجمعون اللؤلؤ وما يحيط به من رمل ويضعونه في المخلاة، وكثيراً ما يهجم عليهم وحوش البحر تحت الماء، فيقذفون عليها الخل ليخيفونها، فإذا ملئوا مخاليهم بأصداف اللؤلؤ أشاروا لمن على ظهر المراكب بتحريك الحبال، فعند ذلك يجذبونهم إلى السطح، وكثيراً ما يحدث أن يهلك هؤلاء الغاصة، وهم في أعماق البحر).

الماء

وفي بلاد الإسلام كانت أمور الري ذات مشكلات عسيرة تحتاج إلى الحل، فقد كانت مصر واليمن والعراق وشمال شرقي فارس وأفغانستان وما وراء النهر، وكان التشريع الخاص بتنظيم الري متشعباً يشتمل مجموعة قوانين دقيقة معقدة.

وإن الجزء الأكبر من التشريع الأوروبي الخاص بالماء مقتبس من التشريع الشرقي.

أما في العراق فكان من واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود والمسنيات والبثوق. وكان ثم لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين. وكانت المحافظة على السدود أمراً شاقاً، لأنها كانت تبنى من قصب وتراب، وتقام في وجوه المياه

الجارية.

وكان السلطان معز الدولة بن بويه حاكماً قديراً، فاعتنى بأمر السدود عناية كبيرة، حتى إنه لما انبثق أحد السدود خرج للعمل فيه بنفسه، وضرب لعسكره المثل بنفسه، وذلك بأن حمل التراب في طرف ثوبه، فحذا حذوه الجميع، وانسد البثق.

وكان على السد الذي أقيم جنوب مرو أربعمائة غواص، يراعونه في ليلهم ونهارهم، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد، فيطلون أنفسهم بالشمع. وعلى كل رجل منهم قطع الخشب وجمع الشوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة.

وكانت الأقاليم الواقعة شرقي فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى تروى بطريقة مبتكرة متقنة الصنع: لم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار، فلم يكن بد من جمع هذا الماء والماء المستخرج من الأرض إلى آخر نقطة، ثم يستعمل النظام المعروف اليوم بنظام كارس[١٩]، وذلك بأن تعمل في جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر، وقد بلغ طول إحدى هذه القنوات اليوم خمسين كيلومتراً، وكان بمدينة قم قنطرة من هذا النوع. وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض، حتى ينزل الإنسان إليها على مراقٍ ربما يبلغ عددها السبعين، وهي تسقي ضياع البلد، وتدور في محلاتها، وتمد أهلها بماءٍ للشربِ نظيف بارد في فصل الصيف.

وفي القرن الرابع الهجري بنى عضد الدولة سكراً عظيماً يعتبر من عجائب بلاد الفرس، وذلك على نهر الكر بين شيراز وأصطخر. وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص، بناه في عرض النهر، فتبخر الماء خلفه وارتفع، فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب، وتحت كل دولاب رحى، وأجرى عضد الدولة الماء في قنوات، فسقى ثلاثمائة قرية. وكان لهذا الشاذوران أبواب تفتح إذا كثر الماء، ولو لا ذلك لغرقت الأهواز، ويسمع للماء المنحدر صوت يمنع من النوم أكثر السنة، وزيادته في الشتاء لأنه من الأمطار لا من الثلوج.

أما في اليمن حيث لابد من جمع الماء الجاري للاستعمال فكانوا يبنون المصانع وهي عبارة عن غدر مرصوفة من جوانبها بالصفا. أما في المناطق الجبلية مثل صنعاء، فكانوا يبنون سدوداً لها فتحات في أسفلها، يجري منها الماء ويوزع في قنوات صغيرة. وكانت هذه الطريقة

---

١٩ - Kariss.

مما اختصت به اليمن، حتى إن ابن رسنة أراد أن يزيد في البيان لقارئه، فوصفها وصفاً كافياً.

الرمال

ولم تكن محاربة طغيان الرمال إلا في أفغانستان، وكان لأهل هذه البلاد علم خاص بكيفية مقاومة فيضان الرمال، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخةً ورمالاً، ورياحهم تشتد وتدوم، حتى أنهم نصبوا عليها أرحاء، يسيرونها بها، ورمال بلادهم تنتقل من مكان إلى مكان، فلولا أنهم يحتالون عليها، لطمت القرى والمدن بها، وكانوا إذا أحبوا نقل الرمل من مكان جعلوا مثل الحائط من خشب وشوك وغيرهما، حتى يعلو على ذلك الرمل، وفتحوا في أسفله باباً، فيدخله الريح، ويطير الرمل على أعلاه مثل الزوبعة على مد البصر، حتى لا يضرهم.

وفي سنة (٣٥٩هـ = ٩٧٠م) تواترت الرياح عليهم بما لم يعهدوا مثله، وأكبت الرياح على الجامع فملأته بالرمل، وتزايد البلاء على البلد، وكان بها قوم موسومون بعلم هذه الصنعة، قد أعجزهم هذا الرمل، حتى ابتدر حدث، وطلب عشرين ألف درهم لدفعه، فأعطوها له بعد تردد وبعد أن خشوا من الهلاك، وأعمل هذا الحدث الحيل، حتى حول مجرى الريح بسدود أقامها، فنسف الريح الرمل بأجمعه.

التسميد

وكان يعتنى بتسميد الأرض عناية كبيرة في جميع البلاد، وكانوا يستعملون في ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم وما يخرج من فضلات الإنسان أيضاً، وكان الأول يباع في العراق بالسابل. وكان للفضلات الإنسانية قيمة في البصرة، كما تقدم القول. وكان الناس في ناحية سيراف، أعني في مدينتي كران وأراهستان، يزرعون النخل في حفر عميقة، حتى لا يظهر من النخلة على وجه الأرض إلا أعلاها، وكان ماء الشتاء يتجمع في هذه الحفر، ويروي النخل. وكذلك كان إذا سئل أحد: أين ينبت النخل في الآبار؟ أجاب: بأراهستان.

الأشباح

ولم تكن تعرف بالمملكة الإسلامية كلها الأشباح التي يطرد بها الطير عن المزارع، وهي ليست معروفة اليوم أيضاً. فكان بالعراق أبناء القرامطة هم الذين يطردون الطير من الحقول، وكانوا يعطون على ذلك أجراً فيدفعونه لجماعتهم.

أما في التركستان في أيامنا فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطيور بأن يقيموا ربوة من الطين، ارتفاعها نحو مترين في وسط كل حقلٍ، وعلى هذه الربوة صبيان عراة أو أنصاف عراة. عملهم طول النهار وفي الشمس المحرقة طرد الطيور، بأن يصيحوا عليها أو يقذفونها بأكر من الطين، أو بأن يضربوا طبلاً أو وعاء معدنياً قديماً، وفي الصيف عندما ينتشر هؤلاء الصبيان اثنان أو ثلاثة في كل حقل أو حديقة، وكل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر عند ذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاء مزعجة، يكاد الإنسان منها يجن).

حيوانات الأكل

وكانت العراق في القرن الرابع الهجري لا تزال بلاداً تربي البقر، وكان الأنباط المقيمون هناك يعرفون بأنهم فرسان البقر ولم يتغلب الجاموس في هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات. وقد جلب المسلمون الجاموس من الهند، وهي موطنه الأصلي، ثم نقل في عهد بني أمية من السند إلى بطائح العراق، بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجاموس على حدود الشام من الشمال لأن الناس شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم، وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود. على أن المسعودي يحدثنا في أوائل القرن الرابع الهجري أن طريقة استخدام الجاموس للعمل بأنطاكية هي طريقة أهل الهند. ثم إن مسلمي الشام نقلوا هذا الحيوان الذي يحب المستنقعات إلى إيطاليا والأندلس.

وفي بعض جهات شمال إفريقية، وهي سجلماسة وقفصة وقسطيلية، كان الناس لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جداً، وهي أنهم يسمنون الكلاب ويأكلونها.

وكان الحمام يحفظ في أبراج تبنى له وقايةً من الأفاعي وغيرها من الحيوانات الضارة وكان لا يؤكل، وذلك لأن زبله كان له قيمة كبيرة في التسميد.

الصناعات

كان اللباس عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان، وهي: الطعام واللباس والمسكن، وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستور ملونة تعلق على حيطانها. وكان أهم ما يعتبر ترفاً هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم، وكان جمال المسكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط. ويحكى عن الطوسي الزاهد (المتوفى عام ٣٤٤هـ ٩٥٥م) أنه لم يكن له فراش، وإنما ذكر ذلك ليكون دليلاً خاصاً على زهده. ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة في جميع البلاد.

وكانت النماذج الصناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومي الذي نختص به. وكان السائر في أنحاء المملكة الإسلامية يستطيع أن يعرف في أي بلد هو، وذلك بالنظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع الستور.

وشاعت بمصر العمائم الدبيقية الطويلة التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع، وظلت منذ عام (٣٦٥ إلى ٤٨٥هـ) = (٩٧٦ . ٩٩٥م).

وهاك ما ذكر هـ ابن البلخي في وصفه لمملكة فارس حوالي (عام ٥٠٠هـ= ١١٠٦م) عن كيفية صناعة الثياب التوزية بمدينة كازرون: يبل الكتان في البرك، ثم يفصل بعضه عن بعض، ويغزل، ثم تغسل خيوطه في ماء نهر الرهبان، وماء هذا النهر، وإن كان قليلاً شحيحاً، فإن له خاصية تبييض خيوط الكتان، مع أنها لا تبيض في غيره من الماء، وهذا النهر ملك لخزانة السلطان، ودخله يرد إلى بيت الأمير، ولذلك لا يصرح بالغسل فيه إلا للنساجين المكلفين بذلك، ويتولى الإشراف عليه ناظره، وثم سماسرة يعينون الثمن المعادل للأقمشة، ويختمون اللفائف المخزونة، قبل تسليمها للتجار الأجانب، وكان هؤلاء يثقون بالسماسرة، ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها، بل يأخذونها كما هي، وكانت إذا وصلت اللفائف إلى أي بلد اشتراها التجار من غير أن يفتحوها، واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون، فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحمل من لفائف كازرون، حتى

تتداوله عشر أيد.

وقد ازدهرت بإقليم سابور من أعمال فارس صناعة خاصة تشبه الصناعة التي اختصت بها الرفييرا الفرنسية، وهي صناعة الروائح العطرية، وكانت الزيوت العطرية في ذلك العصر تتخذ من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج.

وقد حاول البعض أن يقوم بهذه الصناعة الغالية في العراق، فاستحدثت الكوفة دهان الخيري، وكانت في الخيري والبنفسج تفوق سابور.

وكانت بمدينة جور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصناعة المتقدمة، ولكنها تنفصل عنها تمام الانفصال، فكان يحضر ماء الورد بمدينة جور، وذلك من زهور غير الزهور الأولى، مثل الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخلاف، وكان ينقل ماء الورد من جور إلى سائر البلدان، فيحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين. وهاتان الصناعتان الهامتان لم يحدثنا الأقدمون بشيء عن أصلهما، لابد أنهما نشأتا في العصر الإسلامي.

المطاحن

المطاحن

وقد أصبحنا في القرن الرابع الهجري لا نسمع شيئاً عن الطاحونة التي تدار باليد وتحدث جعجعة، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن، وكان على النهيرات الصغيرة أرحاء مائية تدور، وكان على نهر الشيطان وحده . وهو بجيروفت في كرمان . خمسون رحى.

وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشكلات استخدام حركة الماء، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد، وكان الماء يزورهم كل يوم وليلة مرتين، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً، فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجاً وداخلاً.

ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار.

وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة، لا على الفرات، وذلك في تكريت

والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد، وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً، وكانت طواحين مدينة بلد هذه (تقع فوق الموصل على نهر دجلة)، لها فصل تدور فيه وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن إلى العراق.

وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل، فكانت تسمى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم. وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق، فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف ألف درهم. ولم يحدثنا أحد من المؤلفين عن أرحاء نشر الخشب.

وكانت الرياح تشتد بإقليم سجستان وكرمان، ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف، وكانت تسمى (باد صد وبيست روز)، لأنها تهب مائة وعشرين يوماً، وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها، ولا تزال هذه الطواحين إلى اليوم، فيقول الرحالة سفين هيدن: يبدأ هبوب الرياح الشمالية حوالي منتصف يونيو، ويستمر شهرين، وتنصب الطواحين لأجلها خاصة، وللرحى ثمانية أجنحة، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً، طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر. فهذه الرحى طاحونة هوائية على الحقيقة.

صناعة الورق

وكذلك أحدث القرنان الثالث والرابع انقلاباً عظيماً في صناعة الورق، فحرر مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستئثارها به، وصيراه رخيصاً جداً. وكان الناس ـ طول استعمالهم للبردي ـ يعتمدون عل مصر.

أما في القرن الرابع فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق، وأوفق ولا تكون إلا بسمرقند وبالصين.

وكان أجود الورق في ذلك العصر بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نقلت صناعته من الصين، وناله على أيدي المسلمين التغيير الهام الذي يعتبر حادثاً في تاريخ العالم.

أما في القرن الرابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين وبطرابلس الشام.

الآلات الرياضية

وكانت مدينة حران يصنع بها آلات القياس مثل الأسطرلابات وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة، وكانت صحة موازين أهل حران مضرب الأمثال.

وكان يصنع بمدينة بيت المقدس في ذلك العصر السبح لكثرة من كان يزور الحرم الشريف، ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم.

التجارة

لقد كان الشرق الأدنى، في طول العصور التي نعرفها من تاريخه، بعيداً جداً عن مبدأ تقسيم العمل، وهو المبدأ الذي تقضي به الطبيعة، والذي يجعل إنتاج الثروة من شأن الرجل والمحافظة عليها من شأن المرأة.

ولم يستلفت نظر هيرودوت اشتغال النساء بالتجارة إلا بمصر، حيث كان يقمن بالبيع والشراء.

ويحكي المقدسي في كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن السوق في الدور، والباعة نسوان.

وقد لاحظ الرحالة (ماركوبولو) أن نساء التتر يعالجن كل أمور التجارة.

ونلاحظ أن الشعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار.

وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير، ولم يكن هذا ناشئاً عن إشفاقهم مما أشار إليه عمر، بل لأنهم كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، حتى لا نجد لطبقة التجار شأناً في تاريخهم.

وقد أحدث القرن الثالث في هذا الباب انقلاباً كبيراً، فلما جاء القرن الرابع أصبح التاجر

الغني هو ممثل الحضارة الإسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك، ولما كان كل تاجر رجلاً رحالاً فإن المعرفة بأثمان البضائع وأسعار أنواع النقود التي يجل عددها عن الحصر كانت، على أيدي المغامرين من المتعاملين المهرة في جميع البلاد، تمتزج بالخبرة الواسعة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس.

وكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل.

وكان التجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين في القرن الثالث الهجري باسم مجرد، وهو (تجار البحر). وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من (فرنجة) الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور، ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والجار، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني غير ذلك، ويرجعون إلى القلزم، ثم يتحولون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للروم، وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة، فباعوها هناك، وإن شاءوا حملوا تجاراتهم في البحر الغربي، فخرجوا بأنطاكية، وساروا براً إلى الفرات فركبوا في دجلة إلى الأبلة إلى عمان والهند والصين، وكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية، وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية.

وكان الأمر الثاني الكبير الذي بلغه العرب في القرن الرابع الهجري هو فتح الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال، على أنه كانت ثم بعض العلاقات قبل القرن الرابع بين بلاد الروس وبين بلاد الإسلام.

وفي سنة (٣٠٩هـ =٩٢١م) حدث اتصال سياسي بين الخليفة وبين ملك أهل الفلجا، وفي العالم التالي أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده، وفي ذلك العصر تولى شؤون الجزء الشمالي من مملكة الإسلام لأول مرة حكام أكفاء، وهم آل سامان، وكان لذلك أكبر شأن

في تاريخ الإسلام فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النماء والمجد، وضمنوا للتجار الأجانب ربحاً هادئاً، ومعظم النقود العربية التي اكتشفت في شمال أوروبا ترجع إلى القرن الرابع الهجري، وأكثر من ثلثيها من نقود السامانيين. وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر إلى ما بعد الحروب الصليبية هي الطريق بين شمال أوروبا وبين الشرق.

وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشمال فكذلك نال في المشرق بلاداً أخرى واسعة، ففي عام (٣٣١هـ =٩٤٣م) أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد السامانى في بخارى، ويطلب مصاهرته، فرضي نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين، فضمن ذلك أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين وفي حوالي (عام ٤٠٠هـ=١٠١٠م) أضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاء كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجاري عظيم.

الجاليات الإسلامية

وقد نشأ عن هذا التقدم التجاري ازدهار الجاليات الإسلامية في كثير من الأطراف التي تغلب عليها غير المسلمين، فكان يرأسهم مسلم، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادةً إلا المسلمون، وإن قلوا وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وصيمور (الهند). وكان بالصين أيضاً جالية إسلامية، بل كان في كوريا أيضاً جالية من التجار المسلمين.

أما في بوزنطة فكان لا يسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر من ثلاثة أشهر، وكانت أكبر جالية للمسلمين في الإمبراطورية الرومانية تقيم بمدينة أطرابزند، ونلاحظ أنه في هذا العصر الذي ندون تاريخه كانت العملة الذهبية تنفذ وتنتشر شرقاً، وهذه آكد علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية.

والمقريزي قال: إن الناس في مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة إلا أيام الفقر في عهد صلاح الدين، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير.

وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدة السداسية، فكان الدرهم يساوي ستة دوانق، وكان الدانق اثني عشر قيراطاً، والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً، والطسوج ثمانية وأربعين حبة.

المعاملات الضخمة

وكانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع، مأمونة من الضياع، خفيفة الحمل، بعيدة عن متناول اللصوص. ومعظم هذه الوسائل يحمل أسماء فارسية، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس، ومعه سفتجه، وخمسة آلاف درهم نقداً. ويحكي ناصر خسرو، الرحالة الفارسي، أنه لما خرج من أسوان بمصر أخذ خطاباً من صديق له، كتبه إلى وكيله في عيذاب بأن يعطي ناصراً كل ما يريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق. وكذلك أرسل الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفائج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة أيام أن كان مصروفاً. وكان من وسائل المعاملات الصك، وهو في الأصل سند الدين، وكان الرجل إذا اشترى عقاراً كضيعة مثلاً كتب صكاً بشرائها.

الصرافون

ويحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف، وكانوا جميعاً يجلسون في سوق واحد يسمى سوق الصرافين، ولم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة حوالي (عام ٤٠٠هـ=١٠١٠م)، فقد كان العمل بهذا السوق أن كل من معه مال يعطيه للصراف، ويأخذ منه رقاعاً، ثم يشتري ما يلزمه، ويحول ثمنه على الصراف، ولا يعطون شيئاً غير رقاع الصراف، طالما كانوا بالمدينة، ويظهر أن هذا هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالي في المملكة الإسلامية، ومما له دلالته أن يظهر ذلك في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها والتي تقع على الحدود بين فارس والعراق، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار المملكة الإسلامية، وكان لهم جاليات في جميع البلاد تجلب منها التجارة.

الأسواق

وكانت التجارة مركزها الأسواق، شأنها شأن الصناعة، وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً في قسم واحد، وكانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر، ثم يأكلون في أحد المطابخ، أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء. وكان للهراسين في العراق موضع فوق الدكاكين، فيها الحصر والموائد والمري والخدام والطشوت والأباريق والأشنان، فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً.

وكانت الدكاكين في مصر وآسيا الغربية تمتد على طول الشوارع من الجانبين، على كل جانب صف منها. أما أسواق المدن فقد كانت ـ في مبدأ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم ـ أسواقاً أسبوعية، تقام في أيام معينة من الأسبوع، فمثلاً كان السوق بشرقي بغداد يوم الثلاثاء، وكان سوق القيروان يعقد في يومي الأحد والخميس، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة، وكان بين العسكر هذه وبين خان طوق ست مدن تسمى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية، وهو الذي يعقد فيه سوقها، وربما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكاكين ثابتة لا تمتلئ وتعمر إلا في يوم السوق، مثل سوق الأربعاء في الجزائر.

أما في المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدكاكين صفوفاً في مكان واحد، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون، وكانت مركز نسج الكتان، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقاً عند مدينة جامع رام هرمز، وكانت غاية في الحسن، نظيفة، قد بلطت وظللت وزوقت وبربقت، وجعل عليها دروب غلق في كل ليلة.

الفنادق

أما في غرب المملكة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة، وكانوا يضعون بضائعهم في أسلفها، وينامون في أعلاها، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق، وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة.

وكانوا بمدينة جامع رام هرمز يسكنون سوقاً جميلة غاية في الحسن بناها عضد الدولة، وكانت أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد.

الاجارة

وكانت طريقة التأجير شائعة شيوعاً كبيراً، فكان الناس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط، بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً، ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس، وكانت تؤجرها، كل قدر بدرهم في الشهر، وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف، ومعها أصناف الزينة، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر في مثل هذه المناسبات.

سائر المعلامات

على أنه في مملكة شاسعة كالمملكة الإسلامية التي كانت تضم كل درجات الحضارة لابد أنه كانت توجد جميع أنواع التجارة بعضها إلى جانب البعض في وقت واحد، ولكن الجغرافيين في ذلك العصر خاصة لم يهتموا بهذا للأسف، وكان الفقهاء من جهة أخرى يعنون بمعالجة الأصول النظرية، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلاً من المعلومات المؤكدة، فمثلاً كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقصى خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة، فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب، وقد استلفت نظر "ربي بتاحيا"، وهو من مدينة ريجنزبورج، عندما مر بالعراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثقة، فكان إذا جاء إلى هناك تاجر وضع أمتعته إلى جميع الأسواق للبيع فإذا دفع ثمنها المقرر كان بها، وإلا حملوها إلى جميع السماسرة، فان رأوا بها أقل قيمة باعوها بثمن أقل، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة.

الربا

وقد حرمت الشريعة الإسلامية منذ البداية التعامل بالربا أشد التحريم، ويمكن لنا (فانسلب) ان الناس كانوا بمصر حوالي (عام ١٦٦٤م) يخرون من القوانين التي تحرم الربا، وذلك بأن يضطروا المقترض إلى أخذ بضائع رديئة النوع بالسعر الباهظ، وهذا هو الحال عندنا أيضاً.

الملاحة النهرية

كان الفرق بين وسائل المواصلات في المملكة الإسلامية وبينها في أوروبا أثناء العصور الوسطى هو قلة الطرق المائية في مملكة الإسلام.

وليس هناك بالجملة بحيرات كبيرة تصلح للملاحة الطويلة مما يستحق الذكر، وإن كانت بحيرة أرمية، وهي أكبر البحيرات في مملكة الإسلام، تبلغ مساحتها عشرة أمثال مساحة بحيرة كنستانس، وإن كانت البحيرة الميتة أيضاً تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه البحيرة.

وعلى هذا فقد كانت الشام وجزيرة العرب وفارس كلها في وسط المملكة الإسلامية عبارة عن أراض واسعة جداً ليس فيها ملاحة تذكر، لا في الأنهار ولا في البحيرات، وهذا شأنها اليوم كما كانت في العصور الوسطى.

وكانت أكبر شبكة من النهيرات توجد شرقي البصرة حيث تفترش مياه الأنهار، وقد أحصيت في بعض العصور، فزادت على مائة وعشرين ألف نهر، تجري فيها الزوارق، وقد سمع ابن حوقل ذلك، فأنكره، حتى رأى تلك البقاع.

وكان بتلك البلاد نخيل متصل نيفاً وخمسينَ فرسخاً، لا يكون الإنسان بمكان، إلا وهو في نهر ونخيل أو بحيث يراهما، حتى البحر، وكانت هناك المجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والقصور والبساتين على جوانب الأنهار، فإذا جاء مد البحر تراجع الماء في كل نهر، حتى يدخل بساتينهم وجنانهم، وإذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنخيل، وبقيت أكثر الأنهار فارغة.

فيقول المقدسي: (والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن، وترى لهم جلبة وضوضاء، وثلث طيب بغداد في ذلك الشط).

وكانت السفن التي تحمل البضائع تستطيع أن تقف عند أسواق كثيرة، وكان يجد الإنسان

بين لحظة وأخرى قنطرة عالية تصعد عليها الشوارع الضيقة، وقد أحصي في أوائل القرن الرابع عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد، فكانت ثلاثينَ ألفاً.

وكذلك كان ببغداد كثير من القوارب الخاصة، فقد كان لكل من ذوي اليسار من أهل بغداد دابة في اصطبله، وطيار في النهر، وكان الكبراء وأصحاب الجاه ينتقلون في الغالب على الماء.

وكان للجسور المعمولة من السفن في الجانب الشرقي من بغداد زنبريتان متحركتان يمكن رفعهما لتمكين السفن من المرور، بل يذكر المقدسي أنه كان في طرفي الجسر بواسط موضعان تدخل فيهما السفن، وكانت تستعمل لإخراج السفينة من الماء على نهر دجلة طريقة خاصة وذلك أن الملاحين كانوا، وهم على ظهرها، يجذبون حبلاً يجري على بكرة مثبتة على نقطة من الشاطيء، ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائر منتظمة على ظهر السفينة.

أما بمصر فقد كانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جداً في القرن الرابع الهجري، حتى تعجب المقدسي، وهو بمصر، من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك.

المواصلات البرية

لعل طرق ذلك العهد، شأنها شأن طرق اليوم، لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام.

حكى ناصر خسرو أنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية إلى آخرها، وأن السلطان كان يرسل في كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل معتمد، ليجدد عمارته، وكذلك مهد التيه (وهو ارض بالقرب من أيلة، لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها)، وذلك في زمان خمارويه بن أحمد ابن طولون. وكانت لخمارويه عناية بالطرق في الجملة. وفي أواخر القرن الرابع الهجري أنشأ سبكتكين في جنوبي أفغانستان الطرق التي سلكها، فيما بعد، ابنه السلطان محمود، لما غزا الهند.

وكذلك أنشأ جنكيز خان كثيراً من الطرق الواسعة في البلاد الجبلية بآسيا الوسطى، وكان أحد هذه الطرق يخترق مضايق جبال تيان شان جنوبي بحيرة صيرم، وقد أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين.

ولكن العناية كانت في غالب الأحيان تقتصر على حراسة الطرق وتأمينها وإنشاء أماكن

يستريح فيها المسافرون، أو على تيسير الماء فيها لهم على الأقل، فمثلاً كان على الطريق القصير الذي يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة قباب وخزانات يتجمع فيها ماء المطر، ورأى ناصر خسرو على مقربة من بحيرة (وان) بأرمينية طريقاً على امتداده عمد مقامة على الأرض ليسير لمسافرون أيام المطر والضباب بهديها. وذكر البكري شيئاً يشبه ذلك في الطريق الذي بين نفراوة وقسطيلية، فقد أقيمت بينهما خشب يهتدي المسافرين بها لكيلا يضلوا في الأرض السواجة التي بين هذين البلدين.

وكانت هذه الأماكن التي تبنى في الطرق الصحراوية رباطاتٍ للزهاد، وكانت كثيرة بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد، ويذكر الأصطخري أنه كان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط، في كثير منها، إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه، إن احتاج إلى ذلك.

وكان شرق المملكة الإسلامية أكرم من غربها بالجملة، فيحدثنا ابن حوقل مثلاً أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم، أقام رباطات، ووقف على مصالحها بقراً سائمة، وجعل عليها قوامين يحلبونها، ويأخذون ألبانها، ويقصدون بها المجتازين عليهم، ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها، وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه.

وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلاً، مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية، وكانوا يسمونه الجزير. وكذلك كانت توضع حباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق، وربما حمل إليها الماء من بعيد.

أما فنادق المدن فلم نسمع عنها إلا ببلاد فارس، فكان في نيسابور مثلاً شبستان (أي دار الليل)، ومثله بشيراز، وكان في بلاد المغرب في صحاريها ونواحيها الموحشة رباطات كثيرة يأوي إليها الناس، وكان عليها أوقاف كثيرة بإفريقية، والصدقات تأتيها من جميع البلاد.

البريد

أما البريد فهو اختراع قديم جداً.

ويظهر أن البريد اخترع في وقت معين، إذ نلاحظ أن دواب البريد عند الروم والمسلمين والصينيين جميعاً كانت علامتها تحذيف أذنابها. غير أن الروم كانوا يستعملون الخيل في حمل البريد، وكذلك كان الحال عند ملوك العرب في الجاهلية، وكان ملوك الصينيين وملوك الإسلام

يستعملون البغال في بردهم.

وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفرات، أما في شرقيه فبالفراسخ، أما في شطري الدولة الإسلامية فكانت توجد محطات للبريد تسمى السكك، وهي مزودة بالخيل والراكبين على مسافات معينة، كل ثلاثة أميال أو فرسخين. وربما كان راكب البريد يركب الطريق كله، ويدل على ذلك ما حكاه الصولي عن رجل يعرف بالخلنجي كان يحمل الخريطة من مكة إلى بغداد، ويسبق بأخبار الحج، أي أنه كان يقطع المسافة كلها. وكان بين المغرب والمشرق شبه تبادل دولي في البريد، فكان بريد الترك يصل إلى يوشجان الأعلى، وهو حد الصين، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة إلى القسطنطينية، وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال.

أما الطريق الذي يقطع إيران عرضاً من شيراز إلى نيسابور ماراً بيزد فقد لاحظه ابن خرداذبة، وأشار إليه في كتابه (ص ٥٠)، ولكننا لا نجد له ذكراً عند ابن رستة ولا عند قدامة، وربما كان سبب ذلك القلاقل التي كانت تسود شرقي فارس، والتي زادت شر اللصوص في الصحراء الواقعة بين يزد وطبس.

وحوالي منتصف القرن الرابع الهجري ابتنى عضد الدولة مخفراً، معه خزان للماء العذب، وقد وصفه المقدسي بقوله: (ورباط آب شتران هو معدن الخوف، ومأوى الكوج، به قناة عذيبية، تصب إلى بركة، والرباط حسن، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم، من الحجارة والجص، على عمل حصون الشام، وعليه أبواب حديد، وهو شديد العمارة، وفيه قوم يحفظونه، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك المشرق).

ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق، فالمقدسي نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة في سبعين يوماً مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخاً بتقدير ابن خرداذبة، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها، ولأن الطريق كان ـ على قوله ـ مخوفاً من قوم يقال لهم القفص، يسيرون إليه من جبال كرمان، قوم لا خلاق لهم: وجوه وحشة، وقلوب قاسية، وبأس وجلادة، لا يبقون على أحد، ولا يقنعون بالمال، حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار، كما تقتل الحيات، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة، حتى يتصدع.

أما طريق الحج من بغداد فكان يعبر الفرات عند الكوفة، ويفضي إلى الصحراء عند العذيب. وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الإسلامية، ولم تكن فريضة الحج، وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضاً في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحي، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة (٣٣١هـ=٩٤٣م) إلى الشام ومصر، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان.

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجري يتجه نحو القيروان، وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الأقوياء قد أقرت الأمن ومنحت الطرق جانباً من عنايتها، فكان على طول الساحل محارس ومفاخر، وكان السفر مأموناً.

وكانت الأميال معلمة، وطول المسافة من القيروان إلى السوس الأدنى على المحيط الأطلسي ألفان ومائة وخمسون ميلاً. وكان هذا هو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالمشرق.

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة، وكانت تحمل فيه إلى جانب الرسائل أشياء تبعث للسلطان، مما يحتاج إلى سرعة الإيصال، فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثماراً غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان، وأيضاً ما يحكيه ابن طيفور من أنه كان يرسل لأمير المؤمنين مع البريد رطب وألطاف، كأنما جنيت من ساعتها وحينما فتح جوهر مراكش للخليفة الفاطمي وبلغ المحيط الأطلسي، أرسل إليه من هناك سمكاً في زجاجة، ليقيم له الدليل على وصول ملكه إلى البحر المحيط.

وكان يقام حصن عند كل فرسخ من الطريق. والراجح أن الحكام في ذلك العصر عدلوا عن استعمال الخيل في البريد إلى اتخاذ الجمازات.

وكان من أراد أن يكون ساعياً في الإسكندرية فلابد أن يحمل شعلة في سلة على هيئة موقد مثبت في عمود، طوله قامة رجل، وله حلقات من حديد، وأن يقطع المسافة التي بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلاً، ويعود في يومه، قبل مغيب الشمس.

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة، فلم يكن عند المسلمين في

البلاد التي كانت تابعة للدولة البوزنطية من قبل، لأن هذه الدولة كانت تستعملها. أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل، ويقال إنها استخدمت استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي، فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات إلى أربع.

على أن المسلمين خطوا خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام الزاجل.

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة عام ٣٠٤هـ٩١٦م، وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه في يومه.

وحكى عريب في حوادث عام (٣١١هـ = ٩٢٣م) أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجيء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام، ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك، وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر. ولما قرب القرمطي من الأنبار تشوف المقتدر إلى معرفة أخباره، فلما عرف أبو علي بن مقلة ذلك، طلب أطياراً وأنفذها إلى الأنبار، وكتب له عليها أخبار القرمطي وقتاً بعد وقت.

ولما اشتد خطر القرامطة في هذه السنة نفسها (٣١١هـ= ٩٢٣م) رتب الوزير علي بن عيسى بين بغداد ونهر زيار المرتبين، وسلم إليهم مائة طائر إلى مائة رجل، ليكتبوا له على أجنحتها كتباً بخبر العدو في كل ساعة.

وذكر الثعالبي أن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة. وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف . وكان علوياً وجيهاً متمولاً ببغداد . طيور كوفية، وبالكوفة طيور بغدادية، وكان يكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها، وكان هذا الشريف جالساً عند الوزير مرة، فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة، وأنه لابد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر، وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة، وهو جالس مع الوزير، وكان هذا يحسبه متهاوناً في الأمر.

وكانت الحكومات بالجملة لا تتعرض للأفراد المسافرين، ومن الثابت أنه لم يكن بالمشرق في القرن الثاني الهجري على أبواب المدن من يسجل أسماء من يدخل أبوابها. وقد تكلم أحد الرحالة العرب في النصف الأول من القرن الثالث الهجري عن جوازات المرور عند الصينيين بشيء من التعجب، كأنها عنده شيء غريب.

ولا يذكر كتاب القرن الرابع شيئاً عن البوصلة، وقد وصفها القبساقي لأول مرة (سنة ١٢٨٢م)، ثم ذكرها المقريزي (المتوفى عام ٨٤٥هـ=١٤٤٢م). وكان على ظهر السفينة عدد من المراسي، يقال لكل منها أنجور بلفظها اليوناني، وكان يستعمل لسبر الأغوار سبك، وكانت القوارب الصغيرة تستعمل لتسير المراكب، بالمجاديف، إذا احتاج الأمر.

وقد دهش ابن حوقل، مع تدويخه البلدان طوافاً، من مهارة الملاحين الذين رآهم في تنيس بمصر السفلى، إذ كانت بحيرة تنيس قليلة العمق، يسار في أكثرها بالمداري، وتلتقي السفينتان، تحك إحداهما الأخرى، هذه مصعدة، وهذه نازلة بريح واحدة مملاة شرعها بالريح، ومتساوية في سرعة السير. وكان بين ملاحي السفينة ملاح غواص، وكان الغواصون في مراكب الصين في القرن الحادي عشر زنوجاً يستطيعون الغوص، وعيونهم مفتوحة.

وحكى رجل من العرب في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أنه كان في مراكب البحر الهندي عادة أربعة من الغواصين، فإذا نفذ الماء في المركب، وعلا فيه، عمدوا إلى أجسامهم، فطلوها بزيت السمسم، وإلى أنوفهم فسدوها بالشمع، ثم أخذوا يسبحون حول المركب في مسيره، ويسدون ثقوبه بالشمع، وهم يستطيعون أن يسدوا عشرين إلى ثلاثين ثقباً في اليوم.

وروى أحد الثقاة في القرن التاسع أنه يوجد على مراكب الفرس التي تمخر عباب البحر كثير من الحمام، يستطيع أن يطير بضعة آلاف لي (مقياس للمسافة)، وإذا أطلق طار عائداً إلى بلاده رسولاً يحمل أحسن الأخبار.

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادي، فقد كان بحراً عربياً، وكان لابد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب، كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي.

ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر على حال يرثى لها من

الضعف، ففي سنة (٩٣٥م) استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه، ومدينة بيزا في عامي (١٠١١. ١٠١٤م).

ويذكر اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري أن ميناء طرابلس الشام عجيب يحتمل ألف مركب.

وكانت مدينة صور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبوزنطة، إذ كان بها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم، وكانت حصينة جليلة.

ويقص الإدريسي خبر جماعة يسميهم المغربين (أو المغررين في رواية)، ركبوا بحر الظلمات من لشبونة، في القرن الرابع على الأغلب، ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه، وكانوا ثمانية رجال كلهم أولاد عم فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا في أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف، فردوا قلوعهم في اليد الأخرى، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر، ثم ساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث، فاعتقلوا ثلاثة أيام، ثم جاءهم في اليوم الرابع ترجمان للملك يتكلم اللسان العربي، وأحضروا بين يدي الملك، فسألهم عن حالهم، فأخبروه بخبرهم، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جري الرياح الغربية، فوضعوا في قارب وعصبت أعينهم وجري بهم في البحر برهة قدروها بثلاثة أيام، حتى انتهوا إلى بر، فأخرجوا، وكتفوا إلى خلف، وتركوا بالساحل حتى طلع النهار، وجاء قوم برابر، فحلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين.

وقال المسعودي في عام (٣٣٢هـ = ٩٤٣م) : وقد ركبت عدة من البحار، كبحر الصين والروم والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزنج، وكان قد ركب البحر سنة (٣٠٤هـ =٩١٦م) من زنجبار (قنبلو) إلى عمان، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي، وفي ذلك البحر غرقا، فيما بعد، بمركبهما وجميع من كان معهما، وكان ملوك زنجبار في تلك الأيام مسلمين، وكان أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين في أسافل بحر الزنج إقليم سفالة (موزمبيق)، وهي أقاصي بلاد

الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين.

وتقع البصرة على نهر شط العرب، وبينها وبين البحر مرحلتان، وكان هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة تشبه جزيرة هلجولاند، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير، وهي مدينة عبادان، وكان فيها رباطات وعباد صالحون، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء، غير أن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق، وكان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبدين ومكفرين عن ذنوبهم، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها، وكانت بها حامية لمكافحة القرصان، وكان على نحو ثلاثة أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات، فيه عمد من الخشب منصوبة في الماء، قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور، ويوقد المرقب بالليل لتهتدي به السفن، وتستدل به على مدخل دجلة، وكان هذا الموضع مخوفاً، إذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به.

ويقول ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري: إن الخشبات اثنتان، وهو يفصل في وصفها، فيقول إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة، ثم تضيق في أعلاها، وهي تعلو سطح البحر بخمسين متراً، وفي أعلاها حجرة مربعة للناظور.

وفي أوائل القرن التاسع الميلادي كان على رأس الجالية الإسلامية في كانتون رئيس مسلم يعينه إمبراطور الصين، وكان هذا الرئيس يقضي بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة، وإذا كانت الجمعة أو العيد خطب في المسلمين، ودعا في خطبته لسلطان المسلمين.

وفي طول ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب إلى بحار الصين، كما كانت مراكب الصين تختلف إلى عمان والأبلة والبصرة.

وتؤيد التواريخ الصينية ما حكاه بحريو العرب من القضاء على المراكز والجاليات التجارية الإسلامية في الصين ولا سيما مدينة خانقو (وهي كانتون الحديثة) حوالي (عام ٨٨٠م)، وذلك أن شريراً نبغ في الصين .كما يقول المسعودي . فقضى على أسرة تنج، وأفسد أمور الصين، وفتح خانقو، وكانت ملتقى السفن التجارية الإسلامية، وقتل من أهلها مائتي ألف من المسلمين ومن غيرهم، وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصين، واختفت معالم التجارة البحرية من هناك. ونستطيع أن نستدل من كتاب عجائب الهند .

وأهم ما فيه وصف أحوال القرن الرابع الهجري هناك . على أن أقصى ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة كله أو كدا في ملقا، وكان هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم.

وفي عام (١١٧٨م) يقول أحد كتاب الصين: إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية الغنية في كثرة ما يدخر بها من البضائع المتنوعة الغالية، ويليها في ذلك جاوة وبالمبانج (وهي سومطرة)، ثم تأتي بعد ذلك بلاد أخرى كثيرة.

وكان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين، وكان لابد له بعد ذلك من انتظار الرياح الطيبة، لأن تلك النواحي تسودها رياح واحدة في كل ستة أشهر، أما في العودة فكان الناس يسيرون أربعين يوماً من تسوان تشو إلى أيتا على الطرف الشمالي الغربي من جزيرة سومطرة، وكانوا يتاجرون هناك، ثم يعودون إلى البحر في العام التالي، ويعودون إلى بلادهم في ستين يوماً بمعاونة الرياح العادية.

ولما كانت هذه السفن خلوا من كل آلة يستعان بها في الملاحة كانت الرحلة محفوفة بالمعاطب، فكان الناس يتعجبون أشد التعجب إذا عمل الربان هذه الرحلة سبع مرات، وكان المسافر إذا وصل إلى الصين عد ذلك عجيباً، أما رجوعه إلى بلاده فكان يعتبر كالمستحيل، ولهذا فلا عجب أن نسمع أن الرجل الذي في أعلى السارية كان، إذا رأى أول علامات أرض الوطن، نادى قائلاً: رحم الله كل من قال: الله أكبر! فعند ذلك يجيبه جميع من في المركب قائلين: الله أكبر! ويهنيء بعضهم بعضاً، ويبكون، لما يكون قد هجم عليهم من السرور.

❁ ❁ ❁

وهذا آخر ما أردنا تلخيصه، نسأل الله عزوجل ان يوفقنا للرجوع إلى الأسلوب الصحيح الاسلامي في جميع مجالات الحياة من السياسة والاقتصاد والاجتماع والحقوق والأحكام و...، فلا حدود جغرافية ولا استبداد ولا ديكاتورية، بل الحريات الإسلامية والأمة الواحدة والأخوة الإسلامية والشورى والتعددية وغيرها مما أمر به الإسلام وكان يطبق نوعاً ما في البلاد الإسلامية إلى قبل نصف قرن تقريباً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

الفهرس

الجغرافيا ٣
تعليق ٦
دعوى النبوة..... ٧
الحج..... ١٢
الجهاد..... ١٥
الخطابة..... ١٧
القصاص ٢٠
الذكر ٢٠
المواعظ..... ٢٢
المساجد..... ٢٣
آثار الرسول ص ٢٦
القرآن..... ٢٦
أهل الكدية..... ٢٩
بعض العادات السيئة..... ٣٠
الغلاميات ٣١
البغاء ٣٣
النساء..... ٣٤
المادية، وقلة الكرامة..... ٣٥
التعذيب..... ٣٦
لا اقرار تحت التعذيب..... ٣٨
الزكاة..... ٤١
أحوال المعيشة..... ٤٥
الأبنية..... ٤٥
الحمام..... ٤٨
الملابس ٥٠
ما يتعلق بالموت ٥١

الأكل والشرب ٥٢
الغناء والرقص ٥٤
عادات أخر ٥٥
القمار ٥٦
المسابقة ٥٧
الرياضة ٥٨
الصيد ٥٨
التقليد ٥٩
أحوال المدن ٥٩
المساجد ٦٠
هندسة المدن ٦٠
المياه ٦٢
الافرازات الانسانية ٦٣
ادارة المدينة ٦٣
الأعياد ٦٤
الأشجار ٦٩
اللئالي ٦٩
الماء ٧١
الرمال ٧٣
التسميد ٧٣
الأشباح ٧٣
حيوانات الأكل ٧٥
الصناعات ٧٦
المطاحن ٧٧
صناعة الورق ٧٨
الآلات الرياضية ٧٩
التجارة ٧٩
الجاليات الإسلامية ٨١
المعاملات الضخمة ٨٢

الصرافون ٨٢
الأسواق ٨٢
الفنادق ٨٣
الاجارة ٨٤
سائر المعلامات ٨٤
الربا ٨٥
الملاحة النهرية ٨٥
المواصلات البرية ٨٦
البريد ٨٧